بشير السباعي

مرايا الإنتلجنسيا



مرايا الانتلجنتسيا

الكتـــاب : مـرايـــا الانتجلتـــــيا

نصـــوص : بشـــير الســـباعى

النـاشـــر : دار النيـــل - الإسـكندريـة

الإصدار الأول : ينـــاير ١٩٩٥

الطـابـــع : مطبعـة الجمهـورية - الإسكندرية

رقم الإيـداع : ١١٢٧١ / ١٩٩٤

الترقيم الدولى : I. S. B. N. 977 - 5360 - 11 - 0

اللوحة الداخلية للفنان كامل التلمسانى

صمم الغلاف الفنان على عاشور، عن عمل للفنان رمسيس يونان

جمع وتوضيب: طـارق حســانين - الإسكندرية

بشـــير الســـباعى

مرايا الانتلجنتسيا

النيــل



سان لوى بلوز　　　　كامل التلمسانى

إلى القــارئ

يتألف هذا الكتاب من مختارات من المقالات والبحوث التى ظهر أغلبها بين عامى ١٩٨٧ و ١٩٩٣ فى عدد من المجلات الثقافية المصرية والكتب.

وتتناول هذه الكتـابات جوانـب من تاريخ الانتلجنتسيـا الإبداعية والمفكرة وتأخذ غالباً شكل سجال مع عدد من الكتاب المصريين والأجانب.

وباستخدام المنهجية الماركسية فى الكتابة التاريخية، تحاول هذه الكتابات رد الاعتبار إلى الحقيقة التاريخية وإبراز جوانب منسية من جوانب التاريخ الثقافى.

ولانملك سوى الأمل فى أن تكون هذه الكتابات مساهمة جديرة بالتأمل من جانب القارئ فى زمن إعادة تقييم القيم الذى نشهده.

القاهرة، ٢٢ فبراير ١٩٩٤

بشــير الســباعى

محاكمة شارل بودلير

إذا ذكر اسم لوى بونابارت (نابوليون الثالث)، المغامر الذى أقام الامبراطورية الثانية الفرنسية، تذكرنا زوجته، الامبراطورة أوچينى، التى كانت لاترتاح إلى إصرار ميريميه على تعريفها بالأدب الفرنسى أو أى أدب آخر، والتى كانت تسئ معاملة الكتاب والأدباء، وهو ما كان يؤدى، كثيراً، إلى إحراج الامبراطور الذى - رغم أن ميريميه قد يئس من تثقيفه - كان يعتبر نفسه مثقفاً، بل وأقدم ذات مرة على كتابة سيرة حياة يوليوس قيصر، معتمداً، بالطبع، على مساعدة العارفين المباشرة، وإن كانت الاستنتاجات الرئيسية التى توصل إليها بدائية وساذجة.

وإذا ذكر اسم شارل بودلير، تذكرنا ديوانه الشهير، «أزهار الشر» ونسينا، غالباً، أعماله الشعرية الأخرى وترجماته لأعمال أدجار پو وكتاباته عن ثيوفيل جوتييه وريتشارد فاجنر وتانهاوزر ورسائله، على الرغم مما لهذه الأعمال والترجمات والكتابات والرسائل من أهمية استثنائية

لكننا، على أية حال، لانكتب هذه السطور للحديث عن كل هذه الأمور، فهدفنا أكثر تواضعاً: إننا نريد الحديث عن فضيحة!

والحال أن تاريخ الامبراطورية الثانية تاريخ حافل بالفضائح. وربما كانت أولى هذه الفضائح أن الدولة أخذت على عاتقها مهمة لعب دور كنيسة العصر الوسيط، فتولت الدفاع عن «مكارم الأخلاق» ومحاربة «الخروج على الاحتشام» و «الهرطقة» بعد أن أنجزت مهمة تعريف كل هذه الأمور من زاوية مصالحها الدنيوية، وحددت لـ «الرعية» واجباتها.

وبديهى أن الأدباء الفرنسيين كانوا جزءاً لايتجزأ من «الرعية» (الرعاع). ويجمع الدارسون لتاريخ الامبراطورية الثانية على أن الأدباء الفرنسيين المتجمعين فى باريس كانوا يشكلون «بروليتاريا أدبية حقيقية» وكانوا يعاملون بالشكل الذى كانت الامبراطورية تعامل به كل المتضورين من الجوع: إنها لاتستطيع إبادتهم لكنها تستطيع التضييق عليهم، سعياً إلى درء الخطر الذى يمثلونه.

وهكذا وجدنا أن الصحف الفرنسية كانت تلفظ أنفاسها بعد توجيه الانذار الثالث إليها وأن كل نسخة معروضة للبيع من أحد الكتب كان يتعين أولاً ختمها بختم رئيس قسم الشرطة وأن المؤلفات التى كانت لاتتمشى مع الروح الاتباعية السائدة كانت تمنع من التداول وأن لجنة الرقابة على الكتب كانت تحول دون صدور ما لاحصر له من الأعمال التى كانت

ترى أنها «تجرح الأخلاق وتسيء إلى الدين ورجال الدين»، وأن كثيراً من الأعمال المصرح بنشرها من جانب اللجنة المذكورة كانت تتعرض للملاحقات الصحفية ثم القضائية بتهمة «الإساءة إلى الشعور العام». وهكذا اقتيد فلوبير وبودلير وبرودون وآخرون كثيرون إلى المحاكمة إثر تحريك دعاوى قضائية ضدهم من جانب حراس «مكارم الأخلاق»!

كان ديوان «أزهار الشر» قد حصل على تصرح بالنشر من جانب لجنة الرقابة وخيل لبودلير، لوهلة، أن إدخاله أخلاق جزيرة ليسبوس اليونانية إلى الأدب، لن يسبب له مشاكل، لكن أوهامه سرعان ما تبددت، فما فعله كان شيئاً جديداً تماماً لايمكن أن يرتاح له المراءون من دعاة الاحتشام!

أما السهم المسموم الأول الذى وجه إليه فقد كان مقالاً نشره الصحفى جوستاف بوردان.

لم يخلف بوردان غير كتيب وحيد، كان قد كتبه عن الراقصة الشهيرة بوماريه، التى كان قد أحبها فى وقت من الأوقات. لكن هذا الحب سرعان ما تحول إلى كراهية بعد أن نشأت بين بوماريه وبودلير علاقة غرامية.

وجاء صدور ديوان «أزهار الشر» ليشكل فرصة لبوردان للثأر من غريمه. وجرى التستر على هذا الدافع الخسيس بالحديث عن مساس بودلير بـ «مكارم الأخلاق» وخروجه على «الاحتشام»الواجب!

واتجه الآباء الكاثوليك المتشددون إلى تحريك دعوى قضائية ضد الشاعر الرجيم، بينما التزم الليبراليون الصمت تجنباً للأذى ووجد الشاعر نفسه وحيداً أمام هيئة قضائية لاتقل كرهاً لـ «البروليتاريا الأدبية الباريسية» عن الامبراطور المدعى والامبراطورة المتكبرة.

وأعلنت الهيئة القضائية أن ديوان «أزهار الشر» ينتهك «مكارم الأخلاق» وأن الشاعر يستحق الحبس لمدة ثلاثة أشهر جزاءاً وفاقاً لما قدمت يداه!

وساعدت الحملة الصحفية على عزل الشاعر، إلى حين، فالرأى العام الفرنسى آنذاك كان مشبعاً بالرؤى المحافظة. لكن الأزمنة تتغير ولايصح، فى نهاية الأمر، إلاَّ الصحيح. وكان الشاعر واثقاً من ذلك.

لقد ذهب مضطهدوه إلى مزبلة التاريخ، أماَّ «أزهار الشر» فقد كتب لها الخلود. وفى عام ١٩١٧ وحده، وهو عيد من أعياد الحرية البروليتارية، الأدبية وغير الأدبية، نشر الديوان فى باريس ست مرات، فمن يتعلم الدرس؟

جورج حنين وإيريكو مالاتيستا

عندما نقلب رسائل جورج حنين (١٩١٤ - ١٩٧٣) إلى الروائى الواقعى الفرنسى هنرى كاليه (مات عام ١٩٥٦) بين عامى ١٩٣٥ و ١٩٥٦، تلك الرسائل التى تكشف عن جوانب مهمة من رؤى وشواغل الشاعر السريالى المصرى الكبير، لن نجد إشارة واحدة إلى إيرريكو مالاتيستا (١٨٥٣ - ١٩٣٢)، الفوضوى الإيطالى البارز، رغم أننا سوف نجد دلائل على تأثير الأخير على الأول.

ومن ناحية أخرى فإننا لن نجد بين كتابات معاصرى جورج حنين التى نشرت إثر موته وكرست لإحياء ذكراه غير إشارة واحدة للدكتور مجدى وهبه إلى حوار دار فى أحد أيام عام ١٩٤٢ فى مقر مجلة «المجلة الجديدة» القاهرية بين المنور التطورى المصرى سلامة موسى (١٨٨٨ - ١٩٥٨) وجورج حنين تكشف - بشكل عابر - عن وقوف شاعرنا على عمل مالاتيستا، فقد أشار الدكتور مجدى وهبه إلى أن جورج حنين قد تحدث أثناء الحوار عن «خيانة الدور الثورى للاتحاد السوفييتى. واستشهد بمالاتيستا». وربما جاز لنا أن نتكهن بأن جورج حنين قد استشهد بالمقدمة التى كتبها مالاتيستا فى عام ١٩٢٢ لكتاب تلميذه «لويجى فابرى»: «روسيا: الديكتاتورية والثورة». ومن المعروف أن جورج كان يجيد الإيطالية.

وإلى أن يتسنى نشر أعمال ورسائل جورج حنين الكاملة، خاصة رسائله إلى أصدقائه الفوضويين، وفى مقدمتهم الرسام الإيطالى المعادى للفاشية انجيلو دى ريز، والذى أهدى إليه جورج حنين إحدى قصائده الأولى، سوف يكون من الصعب تقدير الأبعاد الكاملة لتأثير مالاتيستا على رؤى ومواقف شاعرنا.

ورغم ذلك، فإن هناك من المبررات ما يسمح بمحاولة رسم ولو صورة أولية لوجوه الشبه فى الرؤى والمواقف بين الشخصيتين البارزتين.

متمردان على الارستقراطية:

ينحدر كل من إيرريكو مالاتيستا وجورج حنين من أصول أرستقراطية ذات ارتباطات قوية بالملكية الكبيرة للأرض الزراعية وذات مكانة متميزة ضمن الهرم البيروقراطى للدولة.

فالأول ينحدر من عائلة كانت تتسلط - قبل الريسورجيمنتو - على إحدى المقاطعات الإيطالية، سواء أكان ذلك من الناحية الاجتماعية - الاقتصادية أم من الناحية السياسية. وقد واصلت التمتع بنفوذ هام خلال الريسورجيمنتو وبعده.

والأخير هو ابن صادق حنين باشا، أحد كبار ملاك الأرض الزراعية وأحد رموز البيروقراطية المصرية العليا فى العهد الملكى، وقد كان سفيراً للقاهرة لدى مدريد بين عامى ١٩٢٤ - ١٩٢٦، وليس هناك ما يدعو للشك فى أنه كان يتمتع بثقة الملك فؤاد الأول (والأخير!) الذى كان يملك، وحده، حق تعيين السفراء!

ومثلما حدث كثيراً فى التاريخ، خاصة التاريخ الحديث، فإن إيرريكو وجورج قد تمرد كل منهما على الارستقراطية التى ينحدر منها. وقد بدأ هذا التمرد، فى حالة كل منهما، بالتمرد على أخلاق التسامح مع الوضع القائم، والتى تلقاها الأول على يد «الإيسكولابيس» والأخير على يد مدرسيه فى «مدرسة العائلة المقدسة».

أما الأول فقد عبر عن هذا التمرد بينما كان مايزال فى الرابعة عشرة من العمر، حيث كتب إلى الملك فيكتور عمانوئيل الثانى رسالة كلها إهانات وتهديدات، ثم دفع ثمن هذه الجرأة بدخول السجن. وصار بذلك أصغر سجين سياسى فى إيطاليا آنذاك (١٨٦٧)!

وأما الأخير فقد عبر عن تمرده من خلال التهكم، فى مجلة علنية، على «الشرعية» التى وصفها - ابن الحادية والعشرين - بأنها «كمامة لأفواه الشعوب». وفى العام نفسه الذى نشر فيه هذا الكلام (١٩٣٥)، نشر - بالاشتراك مع صديقه جوزيف حبشى، الذى آثر إخفاء اسمه الحقيقى واستخدام اسم «جو فارنا» المستعار - كراسا تحت عنوان (التذكير بالقذارة أو فرض القذارة Rappel à L'ordure، وهو عنوان يهزأ من تعبير Rappel à L'ordre (التذكير بالنظام أو فرض النظام)!

وطبيعى أن من غير الوارد - فى حدود هذا المقال - استعراض مسلسل تمرد مالاتيستا وحنين على الوضع القائم وأخلاق الوضع القائم. ويكفى أن أشير إلى أن كلا من الرجلين قد واصل تمرده حتى النفس الأخير. وعندما مات مالاتيستا فى ٢٢/ ٧/ ١٩٣٢، اتخذ الفاشيون كل التدابير لمنع حدوث مسيرات جنائزية، ثم تناوب رجال البوليس محاصرة قبره بعد أو ووري التراب لمنع الناس من الاقتراب ووضع باقات الزهور! وكان مالاتيستا الشيخ قد كتب إلى صديقه أرماندو بورجى فى ٧/ ٣/ ١٩٣٢ - قبل نحو أربعة شهور من موته - يشكو من اعتلال صحته ويعبر فى الوقت نفسه عن أمله فى استعادة حيويته مع قدوم الربيع، حتى يتمكن من مواصلة النضال من أجل قضية التحرر. أما جورج حنين فقد شارك فى انتفاضة مايو ١٩٦٨ فى باريس وكتب - ساعتها - يقول: «العصيان شفق قطبى شمالى، لن يقوى أحد بعد الآن على أن يجعل منه غسقاً!»، وعندما وافته المنية فى الساعات الأولى

من ١٨ / ٧/ ٧٣، طلب إلى من كانوا إلى جواره فى المنفى الباريسى أن يدفن وحيداً فى بلاده، بعيداً عن جبانات مختلف الملل والنحل!.

داعيتان للكوزموبوليتية الثورية:

من المعروف أن أرستقراطيات المجتمعات قبل الرأسمالية وأرستقراطيات المجتمعات التى وصلت إلى الرأسمالية متأخرة، رغم ما تتميز به تلك الأرستقراطيات من ضيق أفق محلى، قد طورت - على المستوى العملى - نزعة كوزموبوليتية خاصة بها يبدو أنها لم تدرس حتى الآن دراسة كافية.

ولعل من ملامح هذه الكوزموبوليتية هو تلك الزيجات التى كانت تعقد بين أبناء وبنات مختلف البيوتات الأرستقراطية المنتمية إلى أجناس وشعوب متباينة، واعتماد أرستقراطيات معينة أساليب حياة أرستقراطيات أخرى، أجنبية.

ومن الواضح أن كوزموبوليتية هذه الأوساط الأرستقراطية ليست لها علاقة بعملية التدويل التى مست مختلف وجوه حياة البشر مع نشوء وتعزز السوق الرأسمالية العالمية، فهى كوزموبوليتية محصورة الأبعاد، كانت تخص جماعة اجتماعية كان التطور الرأسمالى ينذر بزوالها. وبدلاً من هذه الكوزموبوليتية، كان إيرريكو مالاتيستا وجورج حنين داعيتين لكوزموبوليتية جديدة، ثورية.

لقد حارب مالاتيستا ووقف - على جبهات عديدة امتدت إلى أمريكا اللاتينية - ضد اضطهاد الإنسان للإنسان. وقد يدهش القارئ - ولابد له من أن يدهش - إذا عرف أن مالاتيستا الشاب قد جاء إلى مصر فى عام ١٨٧٨ لكى يساند وقوف المصريين ضد التسلط الأوروبى وأنه قد طرد من مصر فى ذلك العام نفسه بأمر من القنصل الإيطالى، وأنه برغم تجربة الطرد هذه قد غادر لندن فى عام ١٨٨٢ متجها إلى مصر، مرة أخرى، لكى يساند تمرد المصريين ضد التسلط الأوروبى!.

أما جورج حنين، من ناحية أخرى، فقد دشن فى القاهرة فور نشوب الحرب الأهلية الأسبانية (١٩٣٦) حملة واسعة لمساندة الجمهوريين الأسبان ضد التمرد الفاشى، وأنخرط فى نشاط المنفيين الإيطاليين المعاديين للفاشية، بعد أن وطد الصلات معهم من خلال أنجيلو دى ريز.

لقد كان مالاتيستا وحنين عدوين لدودين للشوفينية القومية. ومنذ عام ١٨٩٢، كتب

مالاتيستا يقول: «ليس هناك ما يجمع بيننا وبين الوطنى الإيطالى الذى يقول: لايهم أن يموت كل الإيطاليين من الجوع، مادامت إيطاليا سوف تصبح عظيمة ومجيدة» . أما جورج حنين فقد أعرب غير مرة عن تقززه من المتاجرين بالنزعة القومية فى مصر، وكان قد سخر، قبل ذلك، من العنصرية الفاشية ومن الهوس العنصرى الذى كان يدفع المرضى الألمان واليهود إلى التشاجر فى المستشفيات! وأدان نزعة الجامعة السلافية التى عمل ستالين (١٨٧٩ - ١٩٥٣) على بعثها خلال الحرب مع ألمانيا (١٩٤١ - ١٩٤٥)، واستنكر، بشكل خاص، حديث ستالين أمام جنود الجيش الأحمر فى ٧ نوفمبر ١٩٤١ - الذكرى الرابعة والعشرين لثورة أكتوبر - عن «أمجاد» الأسلاف الروس وفى مقدمتهم الأمير اليكسندر نيفسكى، الذى كان قد تمكن فى عام ١٢٤٢ من إلحاق الهزيمة بفرسان الأخوية التيوتونية، وتساءل: ماذا عن بوجاتشوف وستينكا رازين «المدافعين الأسطوريين عن القضية الفلاحية» ؟ وقال: «بدلاً من الإشادة بالأبطال الشعبيين الروس والألمان الذين تلاقوا عبر التاريخ فى نضالات تحريرية واحدة، نجد أن أجهزة الدعاية السوفييتية سرعان ما تجد لذة فى هوس شنيع لاتنبثق منه غير رموز من أسوأ الرموز فى تاريخ روسيا» .

كما أدان جورج حنين عنصرية الجنرالات الأمريكيين الذين كانوا يتحدثون عن الشعب اليابانى خلال الحرب العالمية الثانية بوصفه «جراداً أصفر» وأشاد بالجندى الألمانى الذى لجأ - فور نشوب الحرب الألمانية - السوفييتية - إلى موقع سوفييتى، معلنا أنه لايريد حمل السلاح ضد دولة بروليتارية. وقال جورج حنين: «إن هذه العبارة وحدها قد دوت، أمام التاريخ، دوياً أقوى من دوى مآثر العتاد الحربى التى سبقتها أو التى تلتها. فقد دلت، فوق قصف المعارك، على أن إخاء الكادحين يعلو ويجب أن يعلو على انقسام الناس إلى جماعات عرقية وقومية» .

الحلم بالوطن:

لم ير مالاتيستا وحنين أى تناقض بين النزعة الأممية الثورية والشوق إلى أن يكون وطن الإنسان حراً، سعيداً، وإلى أن يتمكن أبناؤه من المساهمة فى تحرر الجنس البشرى من كل أشكال الاستلاب.

إن كلا من مالاتيستا وحنين قد قضى زمناً فى المنفى، بعيداً عن الوطن. وعندما كان مالاتيستا يتسلل عبر المجر لكى يشارك فى انتفاضة الهرسك ضد الأتراك فى عام ١٨٧٥ ، وعندما كان يوزع الحلوى على الأطفال فى شوارع لندن فى عام ١٨٨٠ ، وعندما كان

ينظم فروع المقاومة العمالية فى الأرجنتين فى عام ١٨٨٥ ، كان يحلم ببلاده، باليوم الذى تنتزع فيه حريتها من أعدائها الداخليين.

وعندما كان جورج حنين يهيم على وجهه فى شوارع أثينا، وروما، وباريس، كان يتذكر بلاده التى نسيته، وكان ما يزال بوسعه أن يقول لها:

فيك

أكون فى النهاية

تحت رحمة نفسى!.

جورج حنين ومأساة اسبانيا

عندما اختار جورج حنين الانحياز إلى جانب المعسكر الثورى خلال الحرب الأهلية الأسبانية (١٩٣٦ - ١٩٣٩)، لم يكن ذلك الاختيار مجرد ترجمة لعدائه السافر للفاشية التى أنجبتها أزمة المجتمع البرجوازى وعززتها أزمة قيادة الحركة العمالية، بل كان أيضاً نتاج تجربته المباشرة مع الواقع الأسبانى على مدار عامين من أعوام التكوين الأولى لمثل الإنسان الذى سوف يصبح، فيما بعد، شاعراً ثورياً.

كان ابن العاشرة قد وصل إلى أسبانيا فى عام ١٩٢٤، بعد ست سنوات فقط من انتهاء الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ - ١٩١٨) التى كانت قد ساعدت على تزايد ثراء كبار المزارعين الأسبان من خلال اتساع صادراتهم من المحاصيل الزراعية إلى الدول الأوروبية المنخرطة فى الحرب. وقد ساعدت أرباح الصادرات على تمويل التنمية الصناعية فى برشلونة، وفى سانتاندر وفى بيلباو، مما قاد إلى نمو البروليتاريا الصناعية فى تلك المدن وإلى ظهور حركة عمالية ثورية.

لكن انتهاء الحرب قد أدى إلى خسارة الأسواق الخارجية وإلى احتداد الأزمة الاجتماعية - السياسية داخل أسبانيا. وقد وصل جورج حنين إلى مدريد بعد نحو عام واحد من بدء مناورة احتواء الأزمة.

ففى عام ١٩٢٣ دشن الجنرال بريمو دى ريبيرا، فى ظل الحكم الملكى، ديكتاتورية عسكرية سوف يقول عنها تروتسكى (١٨٧٩ - ١٩٤٠)، فيما بعد، أنها كانت «تحمل فى داخلها رذيلة الملكية الأسبانية التى لاعلاج لها، فهى وإن كانت قوية تجاه كل من الطبقات المنفصلة، إلا إنها قد ظلت عاجزة فيما يتصل بالحاجات التاريخية للبلاد».

وبينما كان صادق حنين باشا، سفير مصر لدى أسبانيا (١٩٢٤ - ١٩٢٦)، ووالد جورج، يذهب إلى حفلات الاستقبال الباذخة فى القصر الملكى الأسبانى أو يجتمع مع رموز الديكتاتورية العسكرية وممثليها فى وزارة الخارجية الأسبانية، كان الابن يتحسس عجز هذه الديكتاتورية عن «تلبية الحاجات التاريخية للبلاد».

لقد كانت أسبانيا بلداً زراعياً. وعندما وصل جورج حنين إلى هناك كانت نسبة ٨٠ فى المائة من سكان البلد تتألف من أشباه بروليتاريين زراعيين، من معدمين رازحين تحت نير مختلف صور القهر والاستغلال والتحلل فى مستنقع الفقر والبطالة، علاوة على التجهيل

المتواصل لهؤلاء المعدمين على يد جيش جرار من الرهبان والراهبات كان عدده آنذاك يساوى عدد تلاميذ المدارس الثانوية ويزيد مرتين على عدد تلاميذ الكليات الجامعية فى كل إسبانيا فى ذلك الوقت.

ولم يكن حال البروليتاريا الصناعية أحسن كثيراً من حال فقراء الجنوب الزراعيين.

ولابد أن الفتى الذى لاشك فى أنه قد توقف طويلاً أمام أعمال فرانشيسكو دى جويا (١٧٤٦ – ١٨٢٨) قد قال لنفسه أن الشعب الذى أنجب جويا (كان فى مستهل حياته حرفياً يعمل بصناعة السجاد، جدير بمصير أحسن.

ولاشك أن سقوط دى ريبيرا فى يناير ١٩٣٠ وإعلان الجمهورية فى ابريل ١٩٣١ قد قوبلا بترحيب شاعرنا، إلا أنه سوف يشعر بسرور أكبر عندما يسمع أخبار الهبات الثورية التى نظمها الفوضويون فى كاتالونيا فى يناير ١٩٣٢، وانتفاضة عمال المناجم فى آستورياس فى أكتوبر ١٩٣٤، واستيلاء الفلاحين على الأرض فى ايستريمادورا فى مارس ١٩٣٦، واستيلاء العمال، بالقوة، على الأسلحة فى برشلونة فى يوليو ١٩٣٦ ومقاومتهم الجبارة للتمرد الفاشى الإجرامى.

وبعد معارك برشلونة الظافرة، سوف يكتب قصيدة: «عاشت كاتالونيا» محييا عمال كاتالونيا البواسل الذين نسفوا مواقع المدفعية الفاشية فى برشلونة عن طريق عمليات تتميز بالجسارة الثورية النادرة.

ولاشك أن جورج حنين سوف يشعر بالحزن العميق حين يسمع خبر استشهاد ديوروتى (١٨٩٦ – ١٩٣٦)، القائد الفوضوى اليسارى الأسطورى الذى دوخ الفاشيين فى كاتالونيا وفى كاستيل، والذى سقط شهيداً فى معارك الدفاع عن مدريد ضد الهجوم الفاشى البربرى. وسوف يشعر جورج حنين بالاشمئزاز حين يسمع خبر اغتيال أندريه نين (١٨٩٢ – ١٩٣٧)، عدو الفاشية السافر، على يد رسل ستالين الذى كان قد قرر التضحية بالثورة الأسبانية لحساب وفاق مع البورجوازيتين الفرنسية والبريطانية.

كانت فرنسا الجبهة الشعبية وبريطانيا العظمى قد وقعتا فى ١٥ أغسطس ١٩٣٦ ميثاق عدم التدخل فى شئون أسبانيا بعد أقل من شهر من بدء تمرد الفاشيين. وحتى أول أكتوبر ١٩٣٦، التزم ستالين بموقف عدم التدخل فى الوقت الذى كانت تتسع فيه عمليات الفاشيين الأسبان المتحدين خلف الجنرال فرانكو. وعندما قرر ستالين أخيراً التخلى عن موقف «عدم التدخل»، كان يهدف إلى حصر الثورة الأسبانية داخل الأطر الديمقراطية البورجوازية

ومنع تحولها إلى ثورة اشتراكية حتى لايخسر فرنسا وانجلترا، خاصة بعد أن وقعت ألمانيا واليابان فى ديسمبر ١٩٣٦ الميثاق المعادى للكومنترن. وسوف يصل الأمر بستالين إلى حد حل الكومنترن نفسه فى عام ١٩٤٣ تبديداً لمخاوف البورجوازية الأنجلو - ساكسونية.

وعندما تتكشف أبعاد جريمة «عدم التدخل»، سوف يكتب جورج حنين قصيدته العظيمة: «عدم التدخل»، ليشجب خونة الثورة الأسبانية. وسوف تظهر هذه القصيدة فى صدر ديوانه الأول: «لا مبررات الوجود».

على أن انحياز شاعرنا إلى جانب الثوريين الأسبان لم يقتصر على التعاطفات القلبية وكتابة القصائد. فقد شرع فور نشوب الحرب الأهلية فى ١٧ يوليو ١٩٣٦ بتنظيم حملة تبرعات فى مصر لمساعدة الجمهوريين، وسوف تتسع هذه الحملة مع وصول الكتائب الأممية إلى مدريد فى نوفمبر ١٩٣٦.

وقد كتب إلى هنرى كاليه، الروائى الواقعى الفرنسى، يخبره، فى أواخر عام ١٩٣٦، بمجهوداته فى هذه الحملة ويشيد بأساليب الفوضويين اليساريين الجذرية فى التعامل مع عملاء فرانكو، مؤكداً: «إننى لم أيأس من المشاركة يوما ما فى فعل الخلاص العام هذا».

وسوف يستقبل رواية أندريه مالرو (١٩٠١ - ١٩٧٦) «الأمل»، التى تتحدث عن الأيام الأولى للحرب الأهلية، استقبالاً حماسياً، مختلفاً فى ذلك مع تروتسكى الذى اعتبر الرواية «تقريراً كاذباً من ساحة القتال»، لأن مالرو قد تستر على دور الستالينية التخريبى فى الثورة الأسبانية. لكن جورج حنين سوف يشير إلى هذا الدور فى رسالة إلى كاليه فى فبراير ١٩٣٩، بعد ثلاثة أشهر من انسحاب الكتائب الأممية من أسبانيا، وقبل شهر واحد من إنتهاء الحرب الأهلية، وسوف يكتب فى العدد الأول من نشرة «الفن والحرية» (مارس ١٩٣٩) مقالاً تحت عنوان: «خونة أسبانيا» يدين فيه خيانة البيروقراطية العمالية للثورة الأسبانية.

لقد حول الفاشيون أسبانيا إلى خرائب، كما تشهد على ذلك مأساة جيرنيكا فى أبريل ١٩٣٧. وسوف ينشر جورج حنين لوحة «جيرنيكا»، التى رسمها بابلو بيكاسو، على ظهر بيان: «يحيا الفن المنحط!» والذى كتبه شاعرنا فى ديسمبر ١٩٣٨، فور عودته من باريس.

وعندما يحاول المراءون البحث عن عزاء كاذب بالإشارة إلى أن ذخائر أسبانيا الفنية لم تمس بسوء، رغم أن أسبانيا نفسها قد تحولت إلى أشلاء، سوف يتهمهم جورج حنين، فى فبراير ١٩٣٩، بأنهم «جامعون لجثث الشهداء، يستثمرونها استثمارات عاطفية رخيصة رائعة»، وسوف يعلن أن اعتبار الفن تعويضا عن الهزيمة ليس أكثر من اهانة قصوى يوجهونها

إلى الفن: «إن قدر الفن الآن هو أن يخرج إلى الصفوف الأمامية للنضال، جنباً إلى جنب البشر الذين يريدون قهر الماضى بجميع السبل، وذلك بوصفه تحدياً وبوصفه تأكيداً روحياً تخريبياً فى آن واحد. إن لوحة يتردد الفاشيون فى إطلاق رصاص مدافعهم الرشاشة عليها أو فى رشقها بحرابهم ليست من الفن فى شئ، بل هى خسة فنية».

جورج حنين ومأساة هيروشيما

كان نشوب الحرب العالمية الثانية (٣ سبتمبر ١٩٣٩ - ٢ سبتمبر ١٩٤٥) صدمة كبرى بالنسبة للشاعر السيريالى المصرى الكبير جورج حنين. ذلك أن انخراط دول أوروبية متعارضة فى الحرب الأهلية الأسبانية (١٩٣٦ - ١٩٣٩) كان قد جعله يتصور أن زمن الحروب العالمية قد ولى وأن «الصيغة الحالية وصيغة المستقبل المباشر هى الحرب الأهلية المتشابكة مع تدخلات متعددة الأطراف».

لقد كان جورج حنين يتحدث - فى أواخر عام ١٩٣٦ - تحت تأثير الدراما التى كانت تدور على الأرض الأسبانية، حيث كان إغراء القفز إلى التعميم يتميز بحضور قوى وآسر، خاصة وأن الثورة الأسبانية لم تكن قد سحقت بعد ولم تكن الإمكانية الواقعية لمنع نشوب حرب عالمية ثانية قد تبددت بعد.

وعندما نشبت هذه الحرب، تحسس الشاعر «سرعة الموت المكتسبة وقد أحدقت من كل حدب وصوب» وحاول أن يجد عزاء فى واقع أن «الكلمات الحقيقية العظيمة ماتزال فى الداخل، فى حصون الذاكرة المنيعة».

وإزاء انفلات «سرعة الموت» راح يتساءل متى وكيف سوف تنتهى تلك المجزرة، ثم وجد أن «جميع الإجابات تهرب بشكل مأساوى من إرادة الأفراد كما تهرب من إرادة الجماهير الغفيرة».

ثم تذكر «ذلك الصحفى الأمريكى الذى كان يشاهد احتراق مدريد من سطح محطة للاتصالات التليفونية وأبرق إلى مواطنيه: فلتسقط أوروبا!».

إلا أن الشاعر الكبير لم يكن قد رأى بعد قعر الهاوية!

ففى ربيع عام ١٩٤٥، ألقت طائرات الولايات المتحدة الأمريكية مائة ألف طن من المتفجرات على ست وستين مدينة يابانية، مستهدفة الأحياء السكنية للمدنيين الفقراء الأبرياء. وكان حصاد الكارثة البشرية ٢٦٠ ألف قتيل و ٤١٢ ألف جريح.

وقد حدث هذا فى الوقت الذى لم تسقط فيه طائرات الولايات المتحدة قنبلة واحدة على الأهداف العسكرية اليابانية فى منشوريا!

وفى ١٦ يوليو ١٩٤٥، فجرت الولايات المتحدة القنبلة الذرية التجريبية الأولى فى الآموجوردو. وعندما اجترأت الولايات المتحدة على إلقاء القنبلة الذرية على هيروشيما فى

السادس من أغسطس ١٩٤٥، دون مبرر عسكرى، وضد مئات الآلاف من المدنيين الأبرياء، تدشيناً للحرب الباردة، استولى الغضب على الشاعر الكبير، وسارع إلى شجب الجريمة فى كراس «هيبة الرعب» الذى كتبه فى شهر الفجيعة والعار.

كان هدف جورج حنين هو «استفزاز الناس الغارقين فى الأكذوبة»، ذلك أن «القيم التى تحكم مفهومنا للحياة والتى تحفظ لنا، هنا وهناك، جزراً من الأمل وفسحات من الكرامة، يجرى تخريبها بشكل منهجى عن طريق أحداث يدعوننا، علاوة على ذلك، إلى أن نرى فيها انتصارنا، وإلى أن نرحب فيها بالتدمير الأبدى الذى يمارسه تنين لا يكف البتة عن النهوض من موته».

وهو نفسه قد استفزته المفارقة وهو يتابع التحولات التى تطرأ على لاعبى الأدوار: «إن مارجرجس، عند كل جولة صراع جديدة، يتحول أكثر فأكثر إلى اكتساب خصائص التنين. وسرعان ما يكف مارجرجس عن أن يكون شيئاً آخر غير نسخة بشعة من التنين، وسرعان أيضاً ما يحاول التنين المقنع إقناعنا، بضربة حربة، بأن إمبراطورية الشر قد سويت بالتراب!».

ولم يكن جورج حنين مستعداً للاقتناع بأن جريمة إلقاء القنبلة الذرية قد سوت إمبراطورية الشر بالتراب، فهذه الجريمة قد أكدت سطوة وجبروت إمبراطورية الشر.

لقد تحولت هيروشيما إلى خرائب.

وإذا كان جورج حنين قد تنبأ فى قصيدته «عدم التدخل» بأن خرائب أسبانيا «لن تكون الأخيرة»، إلا أن ماحدث لهيروشيما قد تجاوز كل توقعات الشاعر.

لقد مات - على الفور - أكثر من ٧٨ ألف إنسان وأصيب نحو ٧٠ ألف إنسان بجراح - فى غمضة عين - وافترس الأشعاع الذرى أجسام جميع الأحياء - الأموات، الناجين - الهالكين!

وبعد ثلاثة أيام، كان الدور على نجازاكى التى أصبحت أثراً بعد عين، وتحولت إلى مقبرة جماعية لأربعين ألف قتيل وغرفة غاز سام لخمسة وعشرين ألف جريح.

وكان لابد للشاعر النبيل الجميل أن يشعر بالتقزز إزاء حديث كتاب أعمدة الصحف اليومية المتلذذ عن آثار القنبلة الذرية «الساحرة».

وسوف يتذكر، ولاشك، فى عام ١٩٥٨، ذلك الزمن، وسوف يقول: «منذ وقت طويل وأنا أطمح إلى القطيعة طموحى إلى نفحة من الهواء النقى. أطمح إلى صحبة مومسات

في حانة ولكن ليس إلى تجارة الروح الدنيئة» !

لم يكن الشاعر مستعداً لممارسة تلك التجارة. وقد راح يتذكر الأيام الخوالى عندما كان الرأى العام العالمى يندد بلجوء جنود موسولينى إلى استخدام غاز الخردل ضد الأثيوبيين وعندما ثارت «ملايين الضمائر الحية» ضد جريمة تحويل جرنيكا الأسبانية إلى أشلاء: ما الذى جرى لهذه الضمائر الآن؟

إن الأميرال الأمريكى، ويليام هالساى (١٨٨٢ - ١٩٥٩)، أمير بحار ومحيطات الجنوب، يعلن بنبرة عنصرية بربرية: «إننا بسبيلنا إلى إغراق وحرق هذه القردة اليابانية البهيمية ... وإننا لنشعر لدى حرقهم بلذة تفوق لذة إغراقهم».

إن السيد الأبيض الذى تلذذ بحرق الهنود الحمر على أعواد أشجار الغابات الإستوائية فى أميركا الجنوبية، سوف يستعيد اللذة المفقودة بحرق اليابانيين الصفر فى أتون النار الذرية المقدسة!

وإزاء إهدار الكرامة الإنسانية، لايملك جورج حنين سوى أن يعلن: «إن مارجرجس .. يبدأ فى الظهور أمامنا بمظهر أدعى إلى التقزز من مظهر التنين»!.

لقد كان جورج حنين عدواً لدوداً للفاشية وللعسكرية. إلا أن الفاشية لم تكن بالنسبة له مجرد آلة حربية عدوانية يمكن أن تتلاشى من الوجود بمجرد إنزال الهزيمة العسكرية بها. لقد كان ينظر إلى الفاشية بوصفها «سلوكا سياسيا» معيناً يمكن أن يستمر، متخذاً صوراً عديدة، حتى خلال وبعد القضاء على الآلة الحربية الفاشية العدوانية.

وقد رأى الشاعر الكبير أن «السلوك السياسى الهتلرى» لم يهزم، بل إنه «تغلغل فى صفوف الديمقراطية» المزعومة، وإلا فماذا يعنى الحط من الكرامة الإنسانية لليابانيين ووصفهم بـ «القردة البهيمية» ومعاملتهم على هذا الأساس؟

والحال أن جورج حنين لم يكن الوحيد الذى رصد هذه المفارقة، فقبل شهرين من إلقاء القنبلة الذرية على هيروشيما، كان الصحفى الأمريكى لويس كلير قد رصد الآليات التى أطلقها هتلر (١٨٨٩ - ١٩٤٥) والتى أخذت «تكتسب أبعاداً مخيفة» على يد «الديمقراطية» المنتصرة.

وكان لابد لهذه المفارقة من أن تدفع الشاعر الكبير إلى إثارة مشكلة الوسائل والغايات فى السياسة والحرب. خاصة وقد رأى كيف يمكن استخدام وسائل إجرامية مثل إلقاء قنبلة

ذرية على مئات الآلاف من المدنيين الأبرياء وتبرير هذه الجريمة بالحديث عن «نبل المقصد».

وهو لم يكن مستعداً للمساومة.

لقد رأى أنه، حرصاً على القضايا العادلة، «يجب .. تحديد قائمة بالوسائل التى ليس من شأنها طمس الغاية المنشودة. فاللجوء إلى النميمة، فى مواجهة ضرورة عابرة، إنما يترجم نفسه، فى وقت قصير، إلى إدارة للنميمة. وسرعان ما يتكون لدى فريق من المواطنين، طبع نميمى – ولدى الفريق الآخر، وسواس نميمى».

والحال أن الوسائل التى من شأنها طمس الغاية المنشودة سرعان «ما يتكشف – عند الانتصار – أنها قد رفعت إلى مستوى تشوهات قومية وعاهات ثقافية تجرى حمايتها بعناية ضد تمردات العقل المحتملة».

ويستنكر جورج حنين خنوع الرأى العام لهذا المصير المحزن، ويتساءل عن الأسباب التى «تحرم الملايين من الإمساك بناصية القضايا السامية التى تكرس نفسها لها»، بحيث باتت نهباً للانحطاط المعنوى المتمثل فى «تغلغل السلوك الهتلرى فى صفوف الديمقراطية» المزعومة.

ويمسك جورج حنين بالسبب الرئيسى: «إن اتساع وتركز الحياة الاقتصادية الحديثة قد جعل من كل حزب، ومن كل نقابة، ومن كل إدارة، أجهزة شبه شمولية تمشى فى طريقها متخلية عن ثقلها النوعى ولاترجع إلى الخلايا الفردية التى تتشكل منها. وهذه الأحزاب وهذه النقابات، وهذه الإدارات الدولانية الحديثة يحميها من مناهج العقل النقدى (وكذلك من الخفقات الشعورية والتمردات القلبية) خمولها الوحيد وذو السيادة».

لقد تدهورت أسلحة التمرد وتحولت عبر آلية الاحتواء الجهنمية إلى تروس فى عجلة «الديمقراطية» الزائفة.

إلا أن جورج حنين يرى أن هناك ماهو أسوأ من انحطاط هذه الأسلحة: الاستسلام المخزى لهذا الانحطاط، ذلك الاستسلام الذى يتكشف ما أن يتمم المهزومون: وما العمل؟ أننا لانملك بديلاً أحسن!

إن هذا التبرير العاجز يذكر جورج حنين بـ «سينما يغرق فيها المرء، مطأطئ الرأس، لخصم ساعة من الوجود على ظهر الأرض»!.

وسرعان ما يتحول هذا التبرير إلى قوة مدمرة واسعة الانتشار: إنه يتحول إلى «استثمار،

فلسفة، حالة أهلية، سيد، نزوة، دليل براءة مسبق زائف من اقتراف جريمة، دعاء، سلاح، مومس، شهقة أو زفرة، قاعة انتظار، فريرة، فن تصدق على النفس، بوصلة للمراوحة في المكان، شاهد قبر» ، أو إلقاء قنبلة ذرية على هيروشيما وأخرى على نجازاكى!

ويدين جورج حنين هرب الإنسان المعاصر من الحرية ومن تحمل المسئولية ويسخر من ذلك «المواطن الصالح» الذى يعتقد أن بوسعه أن ينام نوماً عميقاً فى ظل الملاك الحارس: القنبلة الذرية!

وإذ يرصد الشاعر الكبير واقع أن «جهاز الرعب مايزال بعيداً عن أن يكون خالياً من الترددات ومن التمزقات» ، يستشعر الأمل ويتساءل: «من الذى سوف يحرك ذراع الفرملة ؟» .

وسرعان ما ترتسم فى مخيلة الشاعر صورة «جيل جديد من الموسوعيين ينطلق من الجرأة الهازئة نفسها التى انطلق منها الجيل السابق» .

كان هذا الجيل السابق يتألف من رجل مثل جان جاك روسو (١٧١٢ - ١٧٧٨) ، ابن الساعاتى والصعلوك المولود فى جنيف والذى قال: «لقد ولد الإنسان حراً، إلا أنه مكبل بالأغلال فى كل مكان» ومثل ڤولتير (١٦٩٤ - ١٧٧٨) ، الأديب الساخر الذى كان «يضرب ويحرق مثل صاعقة» .

إن إشارة الشاعر واضحة بما يكفى، إلا أنه لايتردد فى توضيحها أكثر فأكثر: «إن الروح الرافضة لإهدار الكرامة الإنسانية يجب أن تمتد ناراً عبر مجمل السهب البشرى الواسع» وعندئذ لن يكون الإنسان بحاجة إلى خصم ولو لحظة واحدة من الوجود على ظهر الأرض!.

جورج حنين ونيكولاى بوخارين

خلال الأيام الأولى لشهر مارس ١٩٣٨، مثل نيكولاى بوخارين (١٨٨٧ - ١٩٣٨) أمام «القضاء» (!) الستالينى فى محاكمة الـ ٢١ الصورية الشهيرة التى انتهت بإعدامه رميا بالرصاص بعد أن تأكد لهيئة المحكمة - دون دليل واحد! - أنه «عدو للشعب» منذ عام ١٩١٨ على الأقل!

ولاشك أن محاكمة بوخارين قد سببت صدمة عميقة لجورج حنين، تفوق كثيراً الصدمة التى سببتها له محاكمة موسكو الصورية فى عام ١٩٣٦ ومحاكمة عام ١٩٣٧.

فمنذ ربيع عام ١٩٣٦ على الأقل، كان بوخارين قد أصبح واحداً من ملهمى جورج حنين. ففى أبريل ١٩٣٦، قرأ الشاب المصرى الذى لم يكن قد أكمل بعد عامه الثانى والعشرين كراس بوخارين، «المشكلات الأساسية للثقافة المعاصرة»، فى ترجمته الفرنسية التى صدرت فى أوائل ذلك العام فى باريس ضمن سلسلة «وثائق روسيا الجديدة».

وقد توقف جورج حنين طويلاً أمام الفقرتين التاليتين من الكراس المذكور:

«إن تحليلاً لمجريات الأمور يدفعنا إلى أن نستشف، ليس موت المجتمع، بل موت شكله التاريخى الملموس وانتقالاً حتميا إلى المجتمع الاشتراكى، انتقالاً بدأ بالفعل، انتقالاً نحو هيكل اجتماعى أرقى، والمسألة ليست مسألة مجرد انتقال إلى أسلوب أرقى للحياة، وإنما أرقى على وجه التحديد من الأسلوب الذى هو اليوم أسلوبها. فهل يمكن الحديث عن ذلك الشكل الاجتماعى الأرقى بوجه عام؟ ألن يجرنا ذلك إلى الذاتية؟ وهل يمكن الحديث عن معايير موضوعية من أى نوع فى هذا الصدد؟ إننا نعتقد ذلك. ففى المجال المادى، يتمثل معيار كهذا فى قوة مردود العمل الاجتماعى وفى تطور هذا المردود، لأن ذلك يحدد مقدار العمل الفائض الذى يعتمد عليه مجمل الثقافة الروحية. وفى مجال العلاقات الإنسانية المباشرة، يتمثل معيار كهذا فى اتساع مجال اختيار المواهب الإبداعية. وعلى وجه التحديد، عندما يكون مردود العمل مرتفعاً جداً وعندما يكون مجال الاختيار واسعاً جداً، سوف يتحقق الحد الأقصى من إثراء الحياة الداخلى لدى أكثر عدد من الناس، ليس بوصفهم مجموعاً حسابياً وإنما بوصفهم جماعة اجتماعية».

لقد ذكر جورج حنين فى عام ١٩٤٥ أن هذه الكلمات قد ألهمته الأمل. ويبدو أن المنظور البوخارينى عن «مجتمع المستقبل» هو الذى حدد نشاطات جورج حنين إلى حد

بعيد، خاصة خلال الفترة الممتدة من عام ١٩٣٦ إلى أوائل الأربعينيات، حين أخذت المنظورات اليوتوبية تستأثر بجانب ملحوظ من شواغل شاعرنا، وإن كان ذلك لايعنى أن جورج حنين قد هجر المنظور البوخارينى تماماً، كما تشهد على ذلك إشادته فى عام ١٩٤٥ بـ «رؤى لافارج السخية» والتى لاتختلف من حيث الجوهر عن منظور بوخارين.

والحال أن واقع الثلاثينيات المرير قد حفز جورج حنين إلى التمسك بمنظور بوخارين عن «مجتمع المستقبل»، هذا المنظور الذى يؤكد على إثراء «الحياة الداخلى عند أكثر عدد من الناس»، وهو إثراء لايمكن أن يتحقق دون تجاوز مختلف أشكال الاتباعية.

كان جورج حنين، الفنان، يعلم أن بوخارين لم يكن ثوريا وحسب، بل كان عاشقاً للرسم، وعاشقاً للمرأة، وكاتباً ساخراً تذكر سخريته بسخرية السيرياليين السوداء.

كان بوسع فتاة صغيرة اسمها آنا لارينا أن تحب بوخارين، صديق أبيها، وأن تكتب له، فى عام ١٩٢٥، قصيدة حب:

«يجتاحنى السرور حين ألقاك، ويقتلنى الأسى فى غيابك!».

وكان بوسع هذه الفتاة أن تدس رسالة حبها الأولى إلى بوخارين فى يد ستالين (!) لكى يوصلها إلى المحبوب!

وكان بوسع بوخارين أن يسخر من استبداد ستالين، السكرتير العام للحزب، ويكتب مازحاً أن البشرية لم تنتقل من الوحشية إلى البربرية ثم إلى المدنية، بل انتقلت من المطريركية إلى البطريركية ثم إلى السكرتارية!

وكان جورج حنين يحترم احتقار بوخارين للاستبداد ولانعدام المسئولية تجاه الشعب. ولم يكن جورج حنين بحاجة إلى أن يقرأ رسالة بوخارين الأخيرة، والتى لم تنشر لأول مرة إلا فى عام ١٩٧١، لكى يدرك أن الإفتراء على بوخارين وإعدامه يدلان على انعدام مسئولية الستالينية تجاه الشعب، فأدلة هذا الانعدام للمسئولية كانت تتراكم أمام عينيه كل يوم.

والواقع أن جورج حنين قد اعتبر إعدام بوخارين دليلاً، بين آلاف الأدلة، على ابتعاد مسيرة البشرية، ولو مؤقتا، عن المنظور البوخارينى عن «مجتمع المستقبل». وهو إبتعاد تدل عليه حقبة الثلاثينيات الرجعية التى شهدت صعود الفاشية والستالينية.

وقد رأى جورج حنين أن اقتراب مسيرة البشرية من المنظور البوخارينى عن «مجتمع المستقبل» يتوقف، بين أمور أخرى، على سيادة أخلاق البروليتاريا الثورية ونسف أخلاق مضطهديها.

وقد كتب فى عام ١٩٤٥ : «إن البروليتاريا لايمكنها أن تحلم بالصعود عن طريق التماس الوسائل التى ينحط مضطهدوها بالتماسها» . إن الغاية تقرر الوسيلة!

وعلى هذا الأساس، كان بوسع جورج حنين أن يعلن دون تردد: «إن السوس سوف ينخر فى أساس الستالينية بسبب وسائل انتصارها ذاتها!» . وذلك فى الوقت الذى كان فيه الستالينيون المصريون يسبحون بحمد «الرفيق الأعلى» الذى بسط استبداده على شعوب بأكملها ويشاركون بنشاط فى حملات الافتراء على زملاء لينين!

ولم يهتم جورج حنين، ولا أنور كامل فيما بعد، بافتراءات الستالينيين المصريين ضدهما بسبب دفاعهما عن بوخارين ضد جلاديه.

وفى ٤ فبراير ١٩٨٨ ، حانت لحظة الحقيقة، حين أصدرت المحكمة العليا السوفييتية حكمها ببراءة بوخارين من جميع التهم التى وجهها إليه قاتلوه.

حول ملابسات تكوين جماعة
«الفن والحرية»

الحيز المتاح أمامى لايسمح بالتعقيب على عدد كبير من النقاط التى أثيرت خلال حوار «أدب ونقد» مع الأستاذ أنور كامل والتى تحتاج - دون شك - إلى تعقيب. ولذا فسوف اكتفى - فى السطور التالية - بإبداء عدد من الملاحظات حول ملابسات تكوين جماعة «الفن والحرية».

يشير الأستاذ أنور كامل إلى أن الجماعة كانت تعبيراً عن التقاء ثلاثة روافد كانت موجودة فى الساحة الثقافية المصرية فى الثلاثينيات. وقد أكتفى الأستاذ أنور كامل بهذه الإشارة - الصحيحة - رداً على سؤال لم يكن يسمح بمزيد من التوضيح. على أن السؤال يظل ماثلاً: كيف أمكن لهذه الروافد أن تلتقى بهذه السهولة النادرة التى التقت بها لكى يشكل ممثلوها الجماعة، وما هو الظرف المباشر الذى قاد إلى تأسيسها؟

فيما يتعلق بالشق الأول من السؤال، أعتقد أن سهولة الالتقاء الذى حدث تكمن فى توافر درجة عالية من تقارب تلك الروافد فى فهم دور الانتلجنتسيا الإبداعية الثورية فى تلك الحقبة الرجعية: حقبة الفاشية والنازية وسحق الثورة الاسبانية ومحاكمات موسكو الصورية وتسلط الستالينية على المجتمع السوفييتى وعلى الحركة العمالية العالمية وتزايد نفوذ القوى الشمولية السلفية فى الحياة السياسية - الثقافية المصرية، خاصة بعد توقيع معاهدة ١٩٣٦ وسقوط القومية - الليبرالية فى مصر. وقد أدرك ممثلو تلك الروافد أن معطيات حقبة الرجعية هذه تدمر شروط الإبداع الثقافى، ولذا فإن دور الانتلجنتسيا الإبداعية الثورية يتمثل فى نبذ موقف اللامبالاة تجاه معطيات الحقبة المذكورة والتوحد الإيجابى مع الحركة الثورية التى تهدف إلى إعادة تأسيس المجتمع على أسس جديدة. وقد تكشف هذا الإدراك فى أعمال جورج حنين ورمسيس يونان وأنور كامل وكامل التلمسانى السابقة على تأسيس جماعة «الفن والحرية».

وفيما يتعلق بالشق الثانى من السؤال، أعتقد أن الظرف المباشر الذى قاد إلى تكوين الجماعة فى أوائل يناير ١٩٣٩ يتمثل فى صدور بيان بريتون - تروتسكى الذى صدر فى يوليو ١٩٣٨ فى المكسيك تحت توقيع بريتون والرسام المكسيكى دييجو ريبيرا، وهو البيان الذى دعا إلى «فن ثورى حر» وإلى إنشاء «اتحاد أممى للفن الثورى الحر».

ومن المعروف أن جورج حنين هو الذى طرح فكرة إنشاء جماعة «الفن والحرية»، وهو

الذى كتب بيان «يحيا الفن المنحط!»، الذى صدر قبل وقت قصير من إعلان الجماعة والذى يستعيد أفكاراً رئيسية وردت فى بيان بريتون – تروتسكى. ويذكر ساران اليكسندريان أن جورج حنين هو الذى اختار اسم الجماعة، تجاوباً مع بيان مكسيكو الذى صدر تحت عنوان: «نحو فن ثورى حر».

وقد حدثت ثلاثة تجاوبات مع البيان الأخير:

١- فى فرنسا، حيث تشكلت فى خريف ١٩٣٨ شعبة فرنسية للاتحاد الأممى للفن الثورى الحر، أصدرت نشرة شهرية اسمها Clé (المفتاح) توقفت بعد العدد الثانى (عدد فبراير ١٩٣٩)، كما أصدرت – حتى نشوب الحرب العالمية الثانية – العديد من البيانات ضد النازية. وقد أصدر الأعضاء السرياليون فى الشعبة بياناً تحت عنوان: «لا لحربكم ولا لسلامكم!» (سبتمبر ١٩٣٨). وتحت هذا العنوان نفسه صدر البيان الذى أشار الأستاذ أنور كامل إلى أن لطف الله سليمان قد حرره بمناسبة تفجر النزاع العربى – الصهيونى فى ١٩٤٧ – ١٩٤٨.

٢- فى المكسيك، حيث تشكلت شعبة مكسيكية للاتحاد المذكور، أصدرت نشرة شهرية اسمها Clave (المفتاح)، كما أصدرت عدداً من البيانات.

٣- فى مصر، حيث تشكلت جماعة «الفن والحرية» التى لم تكن شعبة للاتحاد المذكور، وإن كانت قد توحدت – من الناحية العملية – مع الدعوة إلى تحرير الإبداع الثقافى من التسلط الرسمى. وكانت هذه الجماعة هى أطول الجماعات الثلاث عمراً وأوسعها نشاطاً، حيث أن الجماعة الفرنسية قد عصف بها نشوب الحرب العالمية الثانية واحتلال فرنسا من جانب ألمانيا النازية، بينما عصفت الخلافات الداخلية بالجماعة المكسيكية، خاصة بعد تفجر الخلافات بين دييجو ريبيرا وخوسيه فيريل.

وقد أطلع جورج حنين على بيان «نحو فن ثورى حر» فى باريس فى أوائل خريف ١٩٣٨. ولابد أن يكون اتجاه بريتون إلى تأسيس الشعبة الفرنسية للاتحاد الأممى للفن الثورى الحر قد شجع جورج حنين على التفكير فى تأسيس جماعة «الفن والحرية».

ومن المعروف أن الاتحاد المذكور لم يكن اتحاداً تروتسكيا كما لم تكن عضويته قاصرة على المبدعين السيرياليين، إلا أن الاتحاد – مع ذلك – كان محاولة لتوحيد المبدعين الثوريين المعادين للستالينية من منطلقات مختلفة، وقد وحد فى صفوفه مبدعين ماركسيين وفوضويين.

وقد بادر جورج حنين بالعمل على إنشاء جماعة «الفن والحرية» فور عودته من باريس في أواخر عام ١٩٣٨ ، بعد أن أشرف على صدور ديوانه الأول: «لا مبررات الوجود».

ويتضح من رسالة بعث بها جورج حنين من القاهرة فى ديسمبر ١٩٣٨ إلى الروائى الواقعى الفرنسى هنرى كاليه أن اسم الجماعة وخطط عملها على المدى المباشر قد تحددت فى ديسمبر ١٩٣٨ ، وهو ما يدل على أن مشاورات جورج حنين مع أنور كامل ورمسيس يونان وكامل التلمسانى من أجل تأسيس الجماعة لم تأخذ غير أسبوعين أو ثلاثة أسابيع على الأكثر لكى تصل إلى نتيجة موفقة.

والخلاصة أن ملابسات تكوين جماعة «الفن والحرية» كانت ملابسات مصرية وعالمية فى آن واحد. وقد التقت هذه الملابسات فى لحظة محددة لكى تؤدى إلى انبثاق ما أعتبره أول تجمع واسع للانتلجنتسيا الإبداعية اليسارية المصرية المعاصرة.

إيحاء غريب

يكرس أدونيس بحثه عن «الصوفية والسوريالية» للمقارنة بين التجربة الصوفية والتجربة السوريالية كتجربتين فى النظر والكتابة، وهو يجد مشروعية هذه المقارنة فى كون التجربة الصوفية تصل الإنسان بذاته العميقة وبما يتجاوز الواقع الذى يحجبه عن هذه الذات وفى كون السوريالية تخلص الإنسان من اغترابه، أو من غيابه، فى هذا الواقع. ويوضح أدونيس كيف يتم ذلك بالنسبة للتجربتين على المستوى الفلسفى والإبداعى، بما يؤكد أن الصوفية شكل من أشكال السوريالية الخالدة يمكن مقارنته بالسوريالية التاريخية.

وما يثير الدهشة فى بحث أدونيس ليس هو عقد مثل هذه المقارنة ولا التوضيح الذى يقدمه لمشروعيتها بل هو تلك الفقرة الاستهلالية التى يقول فيها:

«الصوفية والسوريالية: عنوان قد يثير استنكاراً، أو على الأقل اعتراضا، لامن الأشخاص الذين يعنون بالسوريالية، وحدهم، وإنما أيضاً من أولئك الذين يعنون بالصوفية. وسواء كانت هذه العناية، فى الجانبين، سلبية أو ايجابية، فإن الجمع بين هذين الاتجاهين قد يكون موضع استغراب».

والحال أن هذا الكلام لايرمى إلا إلى شئ واحد: الإيحاء بأن القارئ لابد له من أن يتعامل مع البحث الأدونيسى باعتباره كشفاً رائداً لعلاقة كانت، حتى ذلك الحين، مجهولة!

لكن رصد العلاقة بين الصوفية والسوريالية ليس من الأمور التى تستحق جهداً كبيراً. وقد أشير إلى هذه العلاقة من جانب نقاد عديدين.

وهكذا، ففى ربيع ١٩٣٨ قال ليون تروتسكى لأندريه بريتون، خلال زيارة الأخير إلى كويواكان:

«إنكم تتذرعون بفرويد، ولكن ألا يفعل عكس ما تفعلون؟ إن فرويد يرفع الوعى الباطن إلى الوعى. ألا تحاولون كبت الوعى تحت اللاوعى؟» (نقلاً عن جان فان هيجينورت: **مع تروتسكى فى المنفى، من برينكيبو إلى كويواكان**، ١٩٧٨، ص ١٢٢).

وفى شتاء ١٩٤٩ أورد ميشيل كاروج كلام بريتون فى «بيان السوريالية الثانى»: «إن كل شئ يدفع إلى الاعتقاد بأن هناك نقطة معينة فى الفكر تكف عندها الحياة والموت، الواقعى والخيالى، الماضى والمستقبل، ما يمكن ايصاله وما لايمكن ايصاله، الأعلى والأسفل، عن أن ينظر إليها بشكل متناقض. والحال أنه من العبث البحث عن دافع آخر

للنشاط السوريالى غير الأمل فى تحديد هذه النقطة». (بريتون: **بيانات السوريالية**، ١٩٨٥، ص ص ٧٢ - ٧٣. تختلف ترجمتنا لهذه الفقرة، جزئياً، عن ترجمة أدونيس لها. - ب. س.) ثم قال:

«ذلكم هو مفتاح السوريالية.

«إن هذا المفهوم عن نقطة عليا، تعلو جميع التناقضات ... يصاغ بشكل سافر خاصة فى بعض كتابات **القبالة** (حركة صوفية يهودية ظهرت فى القرن الثانى الميلادى. - ب. س.). فوفقاً **للزوهار** (نص رئيسى **للقبالة** نشر فى القرن الثالث عشر الميلادى. - ب. س.) تعتبر النقطة العليا هى النقطة الأولى التى خلق الإله العالم بدءاً منها. والسوريالية كما عرفها بريتون فلسفة ملحدة، لكنها تبنت تحت شكل دنيوى وغير دينى تماماً هذه الفكرة عن نقطة عليا، عن بؤرة حية للكون» (مارك ايجيلدينجر، (م): **أندريه بريتون، أبحاث وشهادات**، ١٩٤٩، ص ٦٩).

ومن جهة أخرى، فإننا لانظن أن مما لامعنى له أن جورج حنين، أحد أبرز ممثلى السوريالية التاريخية، قد عكف على قراءة الحلاج (ساران اليكسندريان: **جورج حنين**، ١٩٨١، ص ٩).

فلماذا يريد أدونيس الإيحاء للقارئ بأنه يقدم إليه اكتشافاً جديداً؟.

سرياليون أم تروتسكيون؟

يتناول كتاب «السيريالية فى مصر» للصحفى الشاب سمير غريب جانباً مهماً من جوانب تاريخنا الفكرى والأدبى والفنى المعاصر، ذلك الجانب الخاص بالمساهمة التى قدمتها الحركة السيريالية المصرية إلى حياتنا الثقافية فى ثلاثينيات وأربعينيات هذا القرن، فترة نشاط هذه الحركة.

ويتتبع الكاتب المسيرة الابداعية للرموز البارزة للحركة السيريالية المصرية، مع تركيز خاص على دور الشاعر والناقد السيريالى الكبير جورج حنين (١٩١٤ - ١٩٧٣) - قائد هذه الحركة وأحد الممثلين البارزين للحركة السيريالية العالمية - ودور الرسام والناقد المصرى المعروف رمسيس يونان (١٩١٣ - ١٩٦٦).

وخلال هذا التتبع، تتكشف ملامح رئيسية تميزت بها السيريالية منذ البداية. فالسيريالية - حسب تعبير اندريه بريتون (١٨٩٦ - ١٩٦٦) - هى «حركة آلية نفسية خالصة، يمكن عن طريقها التعبير مشافهة أو كتابة، أو بأى شكل آخر، عن الحركة الفعلية للتفكير. فهى حركة يمليها التفكير، فى غياب أية سيطرة يمارسها العقل، بعيداً عن أى شاغل جمالى أو أخلاقى». (اندريه بريتون، «بيان السيريالية الأول»، ١٩٢٤).

ويتألف جانب كبير من كتاب «السيريالية فى مصر» من نماذج من أعمال السيرياليين المصريين - خاصة فى مجالات النقد التشكيلى والرسم والشعر. كما يتضمن الكتاب عدداً من الرسائل المتبادلة بين السيرياليين تساعد على إلقاء الضوء على نوع الشواغل التى استأثرت باهتمامهم.

وطبيعى أن كتاباً كهذا كان لابد وأن يثير الاهتمام الذى أثاره بين صفوف المثقفين المصريين المهتمين بتاريخ الحركات الفكرية والأدبية والفنية المعاصرة فى مصر. فهذه هى المرة الأولى التى يصدر فيها كتاب مكرس لتاريخ الحركة السيريالية المصرية - وإن كان قد صدر قبل ذلك كتابان على الأقل عن جورج حنين. وهى المرة الأولى التى يجتمع فيها بين دفتى كتاب واحد كل هذا العدد من الوثائق والنصوص السيريالية المصرية التى لم يسبق نشر جانب منها والتى لم يعد الجانب الآخر الذى سبق نشره منها متاحاً لجمهور القراء منذ وقت بعيد. وهى المرة الأولى التى يجرى فيها تقديم تاريخ الحركة السيريالية المصرية ووثائقها فى مصر الثمانينيات بهدف أن يكون - حسب تعبير مؤلف الكتاب - «طعنا فى الحاضر وشقاً للمستقبل».

على أن محاولة المؤلف - من حيث أحد افتراضاتها الرئيسية على الأقل - ليست محاولة جديدة تماماً، فقد عاد الكاتب - مثل آخرين كثيرين سبقوه (د. رؤوف عباس، د. رفعت السعيد، عبد القادر ياسين، إلخ) - إلى الحديث عن «تروتسكية» السيرياليين المصريين المزعومة.

مبررات غير ذكية

والحال أن الذين يحاولون اسناد السيريالية إلى التروتسكية يحرثون فى البحر.

إنهم يتذكرون عدداً من الأمور التى ليس من شأنها - بحال من الأحوال - أن تقود إلى تأييد مثل هذا الإسناد الذى دأب عليه الكورييليون.

يتذكرون - مثلاً - أن السيرياليين والتروتسكيين قد اتخذوا موقف الاستنكار تجاه محاكمات موسكو الشهيرة فى أعوام ٣٦ - ٣٧ - ٣٨، تلك المحاكمات التى قادت إلى التخلص من معظم قادة الثورة البلشفية الرئيسيين: غير أن هذا الموقف لم يكن قاصراً على السيرياليين والتروتسكيين، فقد اتخذه - ساعتها - آخرون كثيرون، خاصة بين صفوف اليسار الثورى، مثل أوتو رول، قائد انتفاضة ساكسونيا فى نوفمبر ١٩١٨، وفيندلين توماس، قائد تمرد فيلهيلمشا فن فى نوفمبر ١٩١٨، وكارلو تريسكا، الزعيم السينديكالى الثورى الذى سبق له التنديد بمحاكمة ساكو وفانزيتى فى الولايات المتحدة الأمريكية، إلخ. كما أن موقف الاستنكار هذا يكاد يكون الآن موقفاً اجماعياً حيث لايدافع عن هذه المحاكمات غير اتباع الديكتاتور الألبانى الراحل أنور خوجه ومن لف لفهم من مخلفات زمن ما قبل الحرب العالميةالثانية.

ويتذكرون كذلك أن اندريه بريتون، مؤسس الحركة السيريالية، وليون تروتسكى (١٨٧٩ - ١٩٤٠)، قائد المعارضة اليسارية ضد الستالينية (١٩٢٣ - ١٩٣٣)، ومؤسس الحركة من أجل الأممية الرابعة (١٩٣٣ - ١٩٣٨) ومؤسس الأممية الرابعة (١٩٣٨) قد كتبا سوياً فى عام ١٩٣٨ بيان «نحو فن ثورى حر» والذى صدر موقعاً من جانب كل من اندريه بريتون والرسام المكسيكى المعروف دييجو ريبيرا، لكنهم ينسون أن هذا البيان لم يأت على ذكر السيريالية، بل اقتصر على الدعوة التى يشير إليها عنوانه وعلى الدعوة إلى إنشاء اتحاد أممى للفن الثورى الحر، علاوة على أن امتناع تروتسكى عن التوقيع على البيان يدل على أنه كان يريد تجنب ذات سوء الفهم الذى وقع فيه كُتّاب مثل كُتّابنا. (بهذه المناسبة، ربما جاز لنا أن نتكهن بأن «جماعة الفن والحرية» التى تكونت فى مصر فى يناير ١٩٣٩،

بعد أشهر قليلة من صدور البيان المذكور، ربما كانت محاولة مصرية للإسهام فى إنشاء ذلك الاتحاد الأممى المقترح، والذى لم ير النور عملياً - وإن كان اندريه بريتون قد أنشأ شعبة فرنسية لذلك الاتحاد أصدرت نشرة شهرية، وأصدرت عدداً من البيانات ضد النازية ودفاعاً عن الحريات - أو، على الأقل، ربما كان اختيارها للاسم الذى حملته صدى للدعوة التى أطلقها البيان والتى تضمنها عنوانه).

ويتذكرون كذلك أن اندريه بريتون وجورج حنين وآخرين من السيرياليين كانوا يكنون احتراماً عميقاً لشخصية تروتسكى، وأنهم قد أفرطوا فى التعبير عن اعجابهم بهذه الشخصية إلى حد أن اندريه بريتون، مثلاً، قد كتب إلى تروتسكى فى ٩ أغسطس ١٩٣٨ يقول: «إننى بحاجة إلى عملية طويلة للتكيف حتى أقنع نفسى بأنك لست بعيداً عن منالى» وقد قال له فى رسالته هذه أنه يشعر بعقدة كورديليانية (نسبة إلى كورديليا، ابنة الملك لير، فى مسرحية شكسبير الشهيرة) تسيطر عليه كلما لقيه وجهاً لوجه.

والحال أن كثيرين قد وقعوا فى مثل هذا الإطراء المسرف، والمسرف بالدرجة الأولى فى نظر تروتسكى. وقد كتب الأخير إلى بريتون فى ٣١ أغسطس ١٩٣٨ ليقول له أن مدائحه قد بلغت من الإفراط حداً أصبح يشعر معه بعدم الإرتياح! وعلى أية حال، لم يكن المعجبون بشخصية تروتسكى بين الأدباء والفنانين يأتون من بين السيرياليين دون غيرهم، فقد كان اندريه مالرو، الروائى الفرنسى الشهير، مثلاً، رغم خلافاته مع تروتسكى، يكن له احتراماً عميقاً. وقد زاره فى أغسطس ١٩٣٣ خلال إقامته فى فرنسا. ورغم كل شئ، فقد زعم بريتون - شريك تروتسكى فى كتابة بيان ١٩٣٨ - زعم فى عام ١٩٥٢، بعد تراجع مشاعر الاعجاب والانبهار، أن فهم تروتسكى لمشكلة الفن كان فهماً متوسط المستوى إلى حد بعيد، وهو رأى لايتفق معه فيه نقاد جادون كثيرون من طراز بول سيجل وكليف سلوتر، الناقدين البريطانيين الشهيرين.

السيرياليون والتروتسكيون فى فرنسا

إن الذين يحاولون - مثل سمير غريب - إسناد السيريالية إلى التروتسكية ينسون تاريخ النزاع المرير بين السيرياليين والتروتسكيين فى فرنسا، هذا النزاع الذى وصفه اسحق دويتشر بأنه قد وصل إلى حد امساك كل فريق بخناق الآخر. وهذا النسيان غريب فعلا، بالنظر إلى أن تاريخ هذا النزاع معروف منذ أواخر العشرينيات، وبالنظر إلى أن اندريه بريتون قد روى جانباً منه منذ ٣٤ سنة فى كتابه التأريخى الرئيسى «أحاديث».

والحال أن بيير نافيل، أحد وجوه الحركة السيريالية الفرنسية، قد خرج عليها في عام ١٩٢٦، ناشراً كراسه «الثورة والمثقفون» الذى دعا فيه السيرياليين إلى الاختيار بين الميتافيزيقا والدياليكتيك، إذ أن هناك تناحراً بين اتجاهى كل منهما. وقد رد بريتون على كراس نافيل في سبتمبر ١٩٢٦، مؤكداً على رفضه التخلى عن الشواغل المحددة للحركة السيريالية وواضعاً إصبعه على الاتهام الرئيسى الذى وجهه نافيل إليها: التذبذب بين الفوضى والماركسية. وقد أنهى نافيل تذبذبه الخاص وانتقل بشكل حاسم إلى مواقع التروتسكية.

وقد ذكر بريتون في «الأحاديث» التى سبقت الإشارة إليها أن بيير نافيل قد بذل كل ما في وسعه، عندما كان واحداً من قادة الشعبة الفرنسية لحركة الأممية الرابعة بين عامى ١٩٣٠ و ١٩٣٩، للحيلولة دون حدوث تقارب مع السيرياليين (لنتذكر أن اندريه بريتون كان بين عامى ١٩٢٧ و ١٩٣٣ عضواً في الحزب الشيوعى الفرنسى، ولنتذكر كذلك أن مشروع بريتون الرامى إلى التوفيق بين السيريالية والماركسية – وهو المشروع الذى كان وراء هذا الإنتماء إلى الحزب الشيوعى الفرنسى – كان نتيجة لسوء فهم كما قال الكاتب الوجودى البير كامى في كتابه «الإنسان المتمرد»، وقد انتهى إلى الفشل كما قال الفيلسوف الوجودى الشهير جان بول سارتر في «ما هو الأدب؟»، وكما أدرك ذلك قبلهما بيير نافيل!).

كما أشار بريتون إلى أن نافيل حاول منعه من المشاركة في الاجتماع الذى انعقد في سبتمبر ١٩٣٦، الذى نظمه التروتسكيون الفرنسيون، تحت عنوان «الحقيقة حول محاكمات موسكو» وأن نافيل لم يتراجع عن هذا الموقف إلاَّ مراعاة لتوسط فيكتور سيرج، الروائى والثورى المعروف، الذى كان قد أفلت لتوه من السجن في روسيا ورحل إلى بلجيكا.

مفهومان للحرية

بينما كان ليون تروتسكى، باعتباره ماركسياً منسجماً، يفهم الحرية على أنها «وعى الضرورة»، كانت السيريالية تتبنى مفهوماً فوضوياً عن الحرية. والواقع أن تصريح إقبال العلايلى (بولا حنين، أرملة جورج حنين) والذى قالت فيه – في معرض نفيها للقصة الغريبة التى أطلقها عبد القادر ياسين وسارع رفعت السعيد إلى تبنيها والتى زعمت أن جورج حنين كان عضواً في ما سمته القصة بـ «سكرتارية باريس – إحدى انشقاقات الأممية الرابعة» – أن جورج حنين كان أكثر ميلاً إلى الفوضوية، لايمكن أخذه على أنه صحيح بالنسبة إلى الفترة الأخيرة من حياة جورج حنين فقط. فالواقع أن فكرة «التمرد المطلق» الفوضوية فكرة

جوهرية بالنسبة إلى الموقف السيريالى، وقد قال اندريه بريتون فى «بيان السيريالية الثانى» (١٩٣٠) أن «من المعروف أن السيريالية لم تخش من أن تجعل من التمرد المطلق، ومن عدم الخضوع التام، ومن التخريب المنهجى عقيدة لها، وأنها لاتنتظر شيئاً إلا من العنف. فالفعل السيريالى الأبسط يتألف من النزول إلى الشارع، بالمسدسات فى الأيدى، وإطلاق الرصاص دون تمييز، قدر الإمكان، على الناس»! وواضح أننا هنا أمام عدمية فوضوية، تصل إلى حد تبرير القتل على حد تعبير هنرى بيهار وميشيل كاراسو. وقد فسر سارتر التمرد السيريالى بأنه «تمرد ضد الأب»، أما كامى فقد اعتبر العدمية السيريالية «عدمية صالونات أدبية». وقد برر السيرياليون عدميتهم ودعوتهم إلى التمرد المطلق بحرصهم على الأخلاق، فالتمرد ليس هدفاً فى حد ذاته وقد سبق لبريتون أن قال فى عام ١٩٢٤ أن «الأخلاق هى العزاء الأكبر».

والواقع أن فلسفة بريتون الأخلاقية هى التى جرته إلى نبذ المفهوم الماركسى للحرية. وقد انتقد كراس تروتسكى «أخلاقهم وأخلاقنا» الذى قال أن تروتسكى قد دافع فيه عن مبدأ «الغاية تبرر الوسيلة»، وهو المبدأ الذى اعتبره امتداداً طبيعياً لمفهوم انجلز عن الحرية. وترتيباً على ذلك، دعا بريتون من وصفهم بالمثقفين الأحرار إلى مواجهة ذلك المبدأ مواجهة تتميز بالرفض الأكثر حسماً والأكثر فعالية، وقال أن التأكيد الفعال الحقيقى للحرية يكمن فى هذا الرفض (لو ليتيرير، ٥ اكتوبر ١٩٤٦).

ومن ناحية أخرى، فإن تروتسكى، فى مقال «الفن والثورة» الذى كتبه فى عام ١٩٣٨، قد اعتبر السيريالية شكلاً من أشكال البوهيمية، المفتقرة إلى أساس اجتماعى والمتبنية لمفهوم فوضوى عن الحرية.

موقفان متعارضان خلال الحرب الأهلية الأسبانية

بينما انحاز السيرياليون - دون قيد أو شرط - إلى صف الحزب العمالى للتوحيد الماركسى والاتحاد الفوضوى الايبيرى خلال الحرب الأهلية الأسبانية (١٩٣٦ - ١٩٣٩) وكانوا - كما قال بريتون نفسه فى «الأحاديث» التى سبقت الإشارة إليها - «يترقبون كل يوم فرصتهما فى انجاز ثورة تكون ثالثة الثورات الكبرى فى الأزمنة الحديثة وتكون الأولى - من يدرى - التى لاتعرف ردة»، نجد أن تروتسكى لم يكف عن انتقاد هذين التنظيمين ولم يترقب أن ينجزا - بسبب نهجهما الذى اعتبره انتهازياً - ثورة كهذه.

وفيما يتعلق بالحزب العمالى للتوحيد الماركسى، فقد قال تروتسكى فى ٢٤ أغسطس ١٩٣٧ أن هذا الحزب «لايستطيع أن يقود بروليتاريا كاتالونيا إلى الهجوم الثورى لأن - وفقط

لأن – كل سياسته السابقة قد جعلته عاجزاً عن اتخاذ مبادرة كهذه»، كما قال فى ٢٢ أكتوبر ١٩٣٧ أن سياسة هذا الحزب كانت سياسة منشفية لا بلشفية.

أما فيما يتعلق بالاتحاد الفوضوى الايبيرى، فقد كتب تروتسكى فى ٤ مارس ١٩٣٩ يقول أن قادته قد تصرفوا خلال الحرب الأهلية بوصفهم «خدماً للبرجوازية». وقد تهكم على الفوضوية التى وصفها بأنها معطف واق من المطر لكنه ملئ بالثقوب، فهو لايصلح خاصة عند سقوط المطر!

فما أوسع الهوة بين توقعات بريتون ورفاقه السيرياليين، من ناحية، وتوقعات وتشخيصات تروتسكى، من ناحية أخرى!

مصيران

رغم حديث سمير غريب المنبهر عن «نشاط الجماعات السيريالية الجديدة»، فإن من المعروف للجميع – جميع المهتمين بأمر السيريالية – أن السيريالية التاريخية قد اختفت فى عام ١٩٦٩. ومن الأمور التى لها دلالتها أن الجماعة قد حلت نفسها (فى اكتوبر ١٩٦٩) – كما يقول هنرى بيهار وميشيل كاراسو – «رغم تجدد ملحوظ للفكر وللفعل الثوريين بعد أحداث مايو ١٩٦٨» فى فرنسا، بعبارة أخرى، لم يكن من شأن المد الثورى فى فرنسا – وطن السيريالية الأم – أن يساعد السيريالية على تذليل العثرات التى كانت تواجهها. ويذكر جان شوستر أن حل الجماعة لنفسها قد «قررته ظروف ذاتية غير ملائمة (آثار اختفاء بريتون)».

ومن ناحية أخرى، نجد أن الأممية الرابعة لم تختف من الوجود بسبب اختفاء مؤسسها، بل نجد أنها فى ذات العام الذى حل السيرياليون فيه جماعتهم، قد عقدت مؤتمرها العالمى التاسع، وهو أهم مؤتمر لها فى مجمل تاريخها حتى الآن، حيث جاء مستفيداً من التجدد الملحوظ الذى حدث للفكر وللفعل الثوريين بعد أحداث مايو ١٩٦٨ فى فرنسا بالذات. وقد شهدت فى عام ١٩٦٩ اتساعاً ملحوظاً لفعالياتها.

غرائب من كل لون

طبيعى أن الأمثلة التى قدمتها على النزاع بين السيرياليين والتروتسكيين ليست بديلاً عن استعراض شامل – ليس هذا المقال مقامه – لتاريخ هذا النزاع. فأنا لم أقصد بما ذكرته فيما سلف غير لفت انتباه مؤرخينا وصحفيينا الذين يكتبون حول هذه الأمور إلى وجوب

احترام الحقيقة التاريخية وإلى ضرورة التعامل الجاد مع الموضوع بدلاً من تزوير التاريخ لاعتبارات عملية قصيرة النظر مثلما يفعل تلاميذ المرحوم هنرى كورييل ومن يمشون فى ركباهم عن علم أو عن جهل، وبدلاً من الركون إلى ذكريات مشوشة تفتقر إلى التحرى الصارم للحقيقة التاريخية مثلما فعل الدكتور لويس عوض فى الندوة التى نظمها اتيلييه القاهرة فى ١٥ نوفمبر ١٩٨٦ لمناقشة كتاب سمير غريب، فقد زعم الدكتور - مثلاً - أن تروتسكى، قائد سوفييت سان بطرسبورج فى ثورة ١٩٠٥، وقائد سوفييت بترو جراد عشية ثورة أكتوبر، وأحد أبرز قادة الثورة البلشفية، وبانى الجيش الأحمر وقائده إلى الانتصار فى الحرب الأهلية على جيوش الثورة المضادة الداخلية وجيوش ١٤ دولة، والذى تحدى ستالين أن يطلب تسليمه إلى الاتحاد السوفييتى للمثول أمام القضاء، زعم أن تروتسكى هذا قد «هرب» من الاتحاد السوفييتى. والصحيح أن تروتسكى قد نفى مجبراً. وقد أبلغ رسمياً بقرار النفى الاجبارى فى ٢٠ يناير ١٩٢٩، وكتب على إقرار تسلم القرار بخط يده أنه قرار «اجرامى فى جوهره وغير شرعى من حيث الشكل».

كما زعم الدكتور أن تروتسكى، الماركسى والقائد الجماهيرى، كان مع الفرد، وليس مع المجموع، فما أوسع علم الأستاذ!!

أما سمير غريب نفسه، فهو يتسرع فى كتابه إلى حد كسر الركبة والرقبة معاً. فقد زعم أن تروتسكى قد نفى إلى استراليا بعد سحق الثورة الروسية الأولى، والحال أن تروتسكى لم يذهب إلى استراليا قط (كم هى بعيدة عن روسيا!) بل ذهب إلى النمسا حيث أصدر صحيفة «برافدا». ويبدو أن صاحبنا قد قرأ فى نص انجليزى ما أن تروتسكى قد نفى إلى أوستريا (النمسا) فترجمها (استراليا)، لتصبح المصيبة مصيبتين!

ومن غرائب سمير غريب أنه قد تعامل مع اسم مارسيل بياجينى على أنه اسم رجل، بينما الحقيقة أن مارسيل بياجينى كانت فتاة (يقال أنها لم تكن جميلة، نعم، غير أننا لم نسمع قط أنها قد أجرت عملية جراحية لكى تتحول إلى رجل!)

وعندما يأتى سمير غريب على ذكر كتاب «أفيون الشعب» يقول أن أنور كامل قد كتبه «عندما كان تروتسكيا»! والحال أن أنور كامل يستند فى هذا الكتاب إلى كراس ج. مونيس: «الثوريون تجاه روسيا والستالينية العالمية» والذى عبر فيه عن آراء تتعارض على طول الخط مع آراء تروتسكى حول البيروقراطية السوفييتية. فبينما اعتبر تروتسكى هذه البيروقراطية ورماً خبيثاً على جسم ديكتاتورية البروليتاريا، رأى ج. مونيس - مواصلاً فى ذلك خط المثقف

اليسارى الايطالى برونو ريزى – أن هذه البيروقراطية تمثل «طبقة حاكمة جديدة»، وهو نفس الرأى الذى تبناه أنور كامل فى كتاب «أفيون الشعب». والحال أن پيير فرانك، أحد قادة الأممية الرابعة، قد فند كراس ج. مونيس غداة صدوره مدافعاً عن تشخيص تروتسكى الأصلى للبيروقراطية السوفييتية الذى كان قد عرضه فى كتاب «الثورة المغدورة».

ومن غرائب سمير غريب كذلك (حقا ما أكثر غرائبه؟!) أنه يقول أن « ع. سعيد» اسم رمزى فى حين أن « ع. سعيد» هذا هو عبد المغنى سعيد، أحد الذين كتبوا فى الأعداد الأولى لمجلة «التطور»، ولو كان سمير غريب قد قرأ مذكرات عبد المغنى سعيد السياسية، التى صدرت قبل كتابه بنحو سنة، لأدرك ذلك، ولكن ماذا نفعل مع التسرع والكسل؟! ولم يكن عبد المغنى سعيد سيريالياً ولاتروتسكياً، بل كان واحداً من الملتفين حول محمود حسنى العرابى بعد عودة الأخير من المانيا، وكانت مجموعة العرابى وسعيد هى المجموعة التى عقدت صلات مع عبد اللطيف البغدادى وغيره من الضباط الشبان.

ولايلاحظ سمير غريب وهو يذكر أن جورج حنين قد فوجئ بنشوب الحرب العالمية الثانية أن هذا يعد دليلاً على أن الكاتب والناقد السيريالى الكبير لم يكن متابعاً جيداً لكتابات تروتسكى فى الثلاثينيات حول المضاعفات المحتملة لوصول هتلر إلى الحكم فى المانيا فى عام ١٩٣٣ . والواقع أن تروتسكى قد ذكر فى نوفمبر ١٩٣١ ، قبل نحو سنتين من وصول هتلر إلى الحكم وقبل عشر سنوات من معركة موسكو، أن «انتصار الفاشية فى المانيا سوف يعنى حتمية الحرب ضد الاتحاد السوفييتى» . ولم تفاجئ الحرب العالمية الثانية تروتسكى ولا أنصاره بل إنهم قد حددوا مهماتهم نحو هذه الحرب عشية نشوبها فى الوثيقة التأسيسية للأممية الرابعة والتى وافقوا عليها فى مؤتمرهم المنعقد فى سبتمبر ١٩٣٨ ، فهل هناك دليل أبلغ من هذا على أن جورج حنين، الذى فوجئ بنشوب الحرب العالمية الثانية، لم يكن تروتسكياً؟!.

وبهذه المناسبة، يجب الإشارة إلى أنه بينما اختار بريتون ترك فرنسا – بعد أن سقطت فى أيدى الهتلريين – ليرحل إلى الولايات المتحدة الأمريكية، فإن التروتسكيين الفرنسيين لم يرحلوا، وقد مات زعيمهم مارسيل هيك فى معتقل دورا، بعد أن وقع فى أيدى الجستابو فى عام ١٩٤٣ .

لقد بات من حقنا أن نتساءل: متى سيكف مؤرخونا وصحفيونا عن خزعبلاتهم؟ متى سيحترمون عقولهم وعقولنا؟ أم أنهم عازمون على مواصلة تخبطهم الذى ليس من شأنه إلا أن يجعل أية محاولة جادة لفهم تاريخ الحركات الفكرية والأدبية والفنية فى مصر المعاصرة من قبيل المستحيلات؟

السيريالية مرة أخرى

من المؤسف أن ما اعتبره سمير غريب ... رداً .... على ملاحظاتى النقدية على كتابه «السيريالية فى مصر» والتى نشرتها هذه المجلة فى عدد يونيو الماضى - لم يشكل مساهمة ايجابية فى إثراء الحوار حول واحدة من أهم الظواهر الثقافية فى فترة ما بين الحربين العالميتين، تلك الفترة التى سميت ... عصر السيريالية.

وأود أن أسجل أن سمير غريب قد تورط فى سوء فهم لست مسئولاً عنه. فأنا لم اتهمه بتزوير التاريخ بل وجهت هذا الاتهام بشكل محدد إلى «تلاميذ المرحوم هنرى كورييل ومن يمشون فى ركباهم عن علم أو عن جهل». ولا أعتقد أن سمير غريب واحد من هؤلاء التلاميذ.

أمّا هو فقد اتهمته بالكسل وبالتسرع وبنسيان عدد من الحقائق التاريخية المهمة وبالتخبط. وقد ضاعف «الرد» من تمسكى بهذه الاتهامات!

السيرياليون المصريون والسيريالية التاريخية

يرتبط تاريخ الحركة السيريالية المصرية ارتباطاً وثيقاً باسم الشاعر والناقد الكبير جورج حنين (١٩١٤ - ١٩٧٣). ويذكر موريس نادو أن انتماء جورج حنين إلى التجمع السيريالى الذى قاده أندريه بريتون (١٨٩٦ - ١٩٦٦) يعود إلى عام ١٩٣٦. وقد استمر ارتباط جورج حنين بهذا التجمع حتى عام ١٩٤٨. وطوال تلك الفترة، كان هذا التجمع هو مصدر إلهام السيرياليين المصريين. ومن هذه الزاوية، فإن النظر فى مواقف هذا التجمع لايمكن اعتباره مهمة تالية لمهمة الكتابة عن الحركة السيريالية المصرية كما يتصور سمير غريب، بل هو مهمة تفترضها مثل هذه الكتابة إذا كانت تريد التوصل إلى استنتاجات يمكن الركون إليها.

وقد تشكلت الحركة السيريالية المصرية فى الوقت الذى كان فيه التجمع السيريالى الباريسى يمر بأزمة حادة فشل خلالها هذا التجمع فى حلها عن طريق ارتباط سياسى بالماركسية الثورية وأخذ يتوحد أكثر فأكثر مع رؤى الاشتراكية الرومانتيكية [شارل فورييه (١٧٧٢ - ١٨٣٧)] والفوضوية التى لم تتوقف الحركة السيريالية عن رؤية نفسها فى «مرآتها السوداء» كما ذكر بريتون نفسه.

والحال أن كتابات السرياليين المصريين خلال الفترة الممتدة من عام ١٩٣٩ إلى عام

١٩٤٨ تكشف عن مثل هذا التوحد. وقد دعا جورج حنين فى كراس «هيبة الرعب» الصادر فى القاهرة باللغة الفرنسية فى عام ١٩٤٥، إلى «سباحة فى تيارات اليوتوبيا الزكية» وإلى «الاعلاء من شأن الأوهام المستحيلة».

ويذكر هنرى بيهار وميشيل كاراسو أن «الدعوة إلى تأسيس أسطورة جديدة، والتى كانت ماثلة على الدوام فى السيريالية، قد أصبحت أكثر إلحاحاً بعد عام ١٩٣٩»، أى بعد نشوب الحرب العالمية الثانية. وطبيعى أن دعوة كهذه كان من المستحيل أن تساعد على حل أزمة الحركة السيريالية أو على حدوث تقارب سياسى ذى شأن مع التروتسكية.

السيريالية والسياسة

لم أزعم قط أن السيريالية «تنظيم سياسى» ولم أعتبر التجمع الذى التف حول أندريه بريتون كان «تنظيماً سياسياً». ولا أدرى كيف استنتج سمير غريب أننى قد زعمت زعماً كهذا، خاصة وأننى قد أعددت برنامجاً عن جورج حنين اذاعه «البرنامج الثانى» بالاذاعة المصرية فى ٣٠ يونيو ١٩٨٧ ذكرت فيه أن جورج حنين لم يرتبط بأى تنظيم سياسى، فى مصر أو فى فرنسا، وهو ما يعنى ضمنياً أن التجمع السيريالى الباريسى الذى ارتبط به لم يكن تنظيماً سياسياً.

ورغم ذلك، فإن واقع أن السيريالية «ليست تنظيما سياسياً»، ليس من شأنه أن يجعل السيريالية بلا فكر سياسى أو بلا مواقف سياسية يمكن أن تقارن مع المواقف السياسية لتيارات أخرى كما فعلت فى ملاحظاتى النقدية الموجزة.

لقد ذكر أندريه بريتون فى «بيان السيريالية الثانى» (١٩٣٠) أن المشكلة التى تتصدى السيريالية لحلها هى مشكلة التعبير الإنسانى بكافة صوره وأن مشكلة الفعل الاجتماعى تعد إحدى صور هذه المشكلة الأكثر عمومية.

والحال أن سمير غريب لم يرصد فى «الرد» المبدأ الرئيسى للسيريالية رصداً صحيحاً. فهذا المبدأ ليس هو «حرية الفنان ..» كما يزعم بل هو «حرية الإنسان» المفهومة فهماً فوضوياً.

ومنذ عام ١٩٢٩، رصد الناقد والفيلسوف الألمانى الكبير فالتر بنيامين (١٨٩٢ - ١٩٤٠) هذا المبدأ وتحدث بنبرة إحتفاء عن إحياء السيرياليين مفهوم الفوضويين عن الحرية وامتدح «عدمية» أندريه بريتون «الثورية».

ويشير الناقد المعروف روجر شاتوك إلى أن «السيرياليين قد شكلوا أول تجمع مهم للفنانين منذ الرومانتيكيين يحاول ممارسة الفعل السياسى من أجل تحسين المجتمع ..».

وبالإضافة إلى المواقف السياسية التى أشرت إليها فى ملاحظاتى على كتاب سمير غريب يمكن الإشارة إلى تقارب بريتون مع الاتحاد الفوضوى الفرنسى وتعاون السيرياليين الفرنسيين مع صحيفة «لوليبيرتير»، لسان حال الاتحاد الفوضوى الفرنسى، من أكتوبر ١٩٥١ إلى يناير ١٩٥٣ وتأييد مجلة «لارشيبرا» لإنتفاضة مايو ١٩٦٨ فى فرنسا، إلخ.

وإنها لسذاجة مفرطة أن يتصور سمير غريب أن السيريالية مجرد اتجاه فنى وأدبى. ومن السذاجة الأفدح أن يتصور أنها لم تنشئ تنظيماً سياسياً لهذا السبب.

لقد اعتبرت السيريالية نفسها مشروعاً لتغيير العالم ومزجت مشكلة الفن بمشكلة الوجود الإنسانى. أما عزوفها عن إنشاء تنظيم سياسى – رغم انخراطها فى السياسة فكراً وفعلاً – فقد نشأ عن خوفها من طغيان الوسائل، وهو خوف تفسره أسباب فلسفية وتاريخية فى آن واحد. وقد عبر جورج حنين عن هذا الخوف منذ وقت مبكر حين قال: «إن الأطر التنظيمية للسعى الإنسانى، وكل ما يجرنا إلى اختزال الواقعى أو المتصور، يقرر، حين ينجح، اختزالنا نحن. أما الإنسان المتفجر فهو وحده الذى لايمكن اختزاله إلى شحنته الأصلية». فهل فهم سمير غريب شيئاً!

بريتون – تروتسكى

يشير سمير غريب إلى الرسالة التى أرسلها تروتسكى إلى أندريه بريتون والمؤرخة فى ٢٢ ديسمبر ١٩٣٨ والتى يحيى فيها الأول الأخير على مبادرته مع الرسام المكسيكى دييجو ريبيرا (١٨٨٦ – ١٩٥٧) والخاصة بتأسيس «الاتحاد الأممى للفن الثورى الحر». ويتصور سمير غريب أن الإشارة إلى هذه الرسالة يمكن أن تبدل معالم الصورة والتى حاولت رسمها فى ملاحظاتى على كتابه والخاصة بالعلاقة بين بريتون وتروتسكى. وهو يحيلنى، بالمناسبة، إلى كتاب آرتورو شفارتز. حسناً.

إن هذه الرسالة – أيضاً – لاتقدم أية تنازلات للسيريالية. فهى تقتصر على الترحيب بمبادرة كان تروتسكى نفسه أحد أطرافها من الناحية الفعلية وعلى التأكيد على فكرة «أن النضال من أجل الأفكار الثورية فى الفن يجب أن يبدأ مرة أخرى بالنضال من أجل الصدق الفنى، ليس من زاوية أية مدرسة منفردة، بل من زاوية إيمان الفنان الذى لايتبدل بذاته

العميقة نفسها». ولعل فى هذا الكلام - الذى اختار سمير غريب ألاّ يشير إليه - ما يبين أن تروتسكى لم يكن متحيزاً للسيريالية بشكل خاص.

ومن ناحية أخرى، أود أن أذكر سمير غريب الذى يتحدث عن «الأشهر الثلاثة» التى «قضاها» بريتون مع تروتسكى فى المكسيك، بأن بريتون كان قد ذهب إلى المكسيك أصلاً لإلقاء سلسلة من المحاضرات حول حالة الشعر وفن التصوير فى أوروبا وبأن الاجتماعات التى جرت بين تروتسكى وبريتون لم تزد عن عشرة اجتماعات، وكان السبب الرئيسى وراء عدم اختصارها إلى أقل من ذلك هو تكاسل بريتون فى إعداد مسودة بيان «نحو فن ثورى حر» وهو تكاسل أثار استياء تروتسكى وهو استياء رصده جان فان هجينورت، الذى تابع اجتماعاتهما.

خلال المناقشات الأولى التى دارت بين تروتسكى وبريتون، انزعج تروتسكى من دفاع بريتون عن الروائى والفيلسوف الفرنسى، المركيز دو ساد (١٧٤٠ - ١٨١٤) الذى كان بريتون يعتبره «سيريالياً فى السادية» وعن الشاعر الفرنسى، الكونت دو لوتريامون (١٨٤٦ - ١٨٧٠)، كما انتقد فكرة «الصدفة الموضوعية» ذات الأهمية المحورية فى «الفلسفة» السيريالية وأخذ على بريتون أنه يريد الاحتفاظ بـ «نافذة تشرف على ما وراء العالم»!

وليسمح لى سمير غريب - بعد ذلك - بأن أصحح له عنوان كتاب أ. شفارتز الذى يحيلنى إليه. فهذا الكتاب ليس عنوانه: «بريتون - تروتسكى» بل عنوانه: «أندريه بريتون، تروتسكى والفوضى». ولعل السبب فى اسقاط سمير غريب لكلمة «الفوضى» من عنوان الكتاب يكون قد اتضح الآن!

السيريالية الخالدة والسيريالية التاريخية

لم يكن هناك مبرر لاستفاضة سمير غريب فى الحديث عن الجماعات السيريالية الموجودة الآن، فأنا لم أزعم أن السيريالية قد اختفت بل زعمت - ومازلت أزعم - أن الحركة السيريالية التاريخية قد اختفت.

ومن المعروف أن أندريه بريتون هو الذى ميز بين ما وصفه بـ «السيريالية الخالدة» - الموجودة فى جميع الثقافات وفى جميع الأزمنة والتى لن تكف عن الوجود مادام الإنسان موجوداً - وما وصفه بـ «السيريالية التاريخية»، أى الحركة المحددة التى أسسها - مع آخرين - فى عام ١٩٢٤ وأستمرت قائمة حتى عام ١٩٦٩، أى بعد ثلاث سنوات من موت

أندريه بريتون. ففى ذلك العام حل التجمع السيريالى التاريخى نفسه وتوقفت عن الصدور مجلته ... لارشيبرا، التى لم تكن لسان حال تجمع جديد كما يزعم سمير غريب!

وعندما يدور الحديث عن السيريالية التاريخية فإنه يدور عن مواقف وإسهامات هذا التجمع بوجه خاص.

أما الجماعات السيريالية التى يتحدث عنها الصحفى الشاب فهى تنتمى إلى ما يصفه بريتون بـ «السيريالية الخالدة».

وإذا كان الناقد المعروف روجر شاتوك قد رأى أن السيريالية التاريخية قد أختفت غداة المعرض السيريالى الدولى الناجح فى عام ١٩٣٨، وأن الذى استمر من السيريالية بعد ذلك التاريخ هو «شبحها»، فإن هنرى بيهار، استاذ الأدب الفرنسى بجامعة السوربون الجديدة، ورئيس الجامعة ومدير تحرير «ميلوسين»، كراسات مركز الأبحاث الخاصة بالسيريالية، يختلف مع روجر شاتوك ويؤكد أن السيريالية التاريخية قد اختفت فى عام ١٩٦٩.

وبمناسبة التواريخ والتاريخ، لاأملك إلاّ أن اسجل دهشتى إزاء تقليل الصحفى الشاب من شأن كتاب «أحاديث» لأندريه بريتون واستبعاده هذا الكتاب التأريخى لمجرد أن الكتاب عبارة عن مجموعة أحاديث إذاعية وصحفية!

على أن ما يثير قدراً أكبر من الدهشة هو ادعاء سمير غريب أن اندريه بريتون أدلى بالأحاديث التى يتضمنها كتابه «فيما بين ١٩١٣ و ١٩٥٢». وهو ما يعنى أن بريتون بدأ يدلى بأحاديث إذاعية وصحفية منذ أن كان فى السابعة عشرة من العمر وقبل ست سنوات من صدور أول كتاب له!

وواضح أن صاحبنا لم يقرأ الكتاب الذى يتحدث عنه واكتفى بقراءة صفحة العنوان الداخلية التى تقول: (أحاديث «١٩١٣ - ١٩٥٢»). والحال أن ١٩١٣ ليس تاريخ حديث أدلى به بريتون، بل هو تاريخ العام الذى بدأ من عنده بريتون سرد سيرته الواعية لأندريه بارينو فى عام ١٩٥٢! أما الأحاديث الأخرى التى تضمنها الكتاب - والتى لاتؤلف غير أكثر قليلاً من ربع صفحاته - فإن أقدم حديث بينها يعود إلى عام ١٩٤١!

ومن جهة أخرى، ورغم أننى لم أقل أن كتاب «أحاديث» هو كتاب «كتبه» بريتون، إلا أن بريتون، كما يؤكد ذلك رينيه بيرتيليه فى تقديمه للكتاب، قد أعاد كتابة نصوص الأحاديث الإذاعية الستة عشرة التى أدلى بها لأندريه بارينو بعد افراغ الشرائط على الورق!

أنـور كامـل

يتبنى سمير غريب «منهجاً» شاذاً فى تحديد الهوية الفكرية والسياسية لعدد من الشخصيات التى تركت بصمات واضحة على تاريخنا الثقافى والسياسى. وشرط تطبيق هذا «المنهج» الشاذ هو أن تكون الشخصية محل البحث على قيد الحياة بحيث يمكنها أن تكون «حكماً» بين الباحثين، وإلاّ فإن تحديد هويتها الفكرية والسياسية سوف يظل لغزاً إلى أبد الآبدين!

والحال أن تحديد هوية أنور كامل (ولد عام ١٩١٣) الفكرية والسياسية لايتوقف على «شهادة» يدلى بها أنور كامل: فكتاباته موجودة بين أيدينا وتاريخه السياسى ليس سراً بل هو ملك لجميع الباحثين.

لقد كتب أنور كامل بين عامى ١٩٣٦ و ١٩٤٨ ستة كتب، عدا المقالات التى نشرت له فى عدد من المجلات والصحف المصرية. وكل هذه الكتابات تكشف عن شخصية ذات ميول مركبة يصعب تصنيفها بالأسلوب الساذج الذى اعتمده سمير غريب فى الحديث عن أنور كامل فى كتابه.

ومن ناحية أخرى، إذا كان لابد من شهادة من أنور كامل، فلماذا لم يبحث عنها سمير غريب خاصة وأن الرجل قد أدلى بها بالفعل فى «أحاديث» مع الباحثة الأمريكية س. بوتمان – على مدار ساعات – فى عام ١٩٨٠؟

لقد نفى أنور كامل فى هذه الأحاديث أنه كان تروتسكياً فى أى يوم من الأيام، أكان ذلك عند إصدار مجلة «التطور» (١٩٤٠) أم بعد ذلك!

سمير غريب مترجماً

يزعم سمير غريب أن الترجمات الخاطئة التى يحفل بها كتابه ليست أكثر من «أخطاء مطبعية» (يالها من شماعة!) ويدلل على ذلك بأن «أى قارئ ولو متسرع للكتاب يدرك على الفور أن من ترجم نصاً فى منتهى الصعوبة مثل «ملاحظات على زهد هستيرى» وغيره من النصوص لايعجز عن معرفة الفرق بين النمسا واستراليا».

وإذا لم يكن هذا القارئ متسرعاً؟!

لن أتوقف عند حشد الترجمات الخاطئة التى تورط فيها سمير غريب فى كتابه وفى «الرد» الذى نشرته له هذه المجلة (فى ذلك الرد ترجم صاحبنا اسم چدانوف (بتعطيش الجيم)

إلى «زادانوف»!) والتى ليست أخطاء مطبعية بحال من الأحوال. يكفى أن آخذ جملة أو جملتين من ترجمته التى يفاخر بها لنص جورج حنين ورمسيس يونان «ملاحظات على زهد هستيرى» حتى نرى حجم الكوارث التى تترتب عادة على ترجمته:

يقول جورج حنين «هذا العالم الذى لم يعد ينجح أبداً إلاّ حين يولد من حركة زائفة يهمنا أن نعمل على أن يظل بلاحراك. إن شيئاً فى داخلنا ينبهنا إلى أننا لو أعدنا له انطلاقه، فسوف نسمح له بذلك بأن ينتظم ضدنا».

ويترجم سمير غريب هذا النص ترجمة تجعل منه نصاً مضاداً للنص الأصلى فيقول: «نعمل على بقائه ساكناً هذا العالم الذى لاينجح أبداً إلاّ حينما يولد من حركة مزيفة. ثمة شئ داخلنا يحثنا على أن نعيد له حريته، أن نسمح له بأن ينتظم ضدنا» (ص ١٨٣ من كتاب سمير غريب)!

أغرب من غريب

حتى تاريخ كتابة هذه السطور، لم ينشر سمير غريب تكذيباً لإدعاء مختار العطار فى مجلة «المصور» الأسبوعية - عدد ١٧ يوليو ١٩٨٧ - أن سمير غريب هو مترجم قصائد جورج حنين الخمس المنشورة ضمن ملاحق كتاب «السيريالية فى مصر»، رغم أن سمير غريب نفسه لم يزعم ذلك فى تقديمه لهذه القصائد بل أشار إلى المصادر التى نقل عنها هذه القصائد المترجمة. والحال أن سكوت سمير غريب عن الرد على إدعاء مختار العطار هو الوجه الآخر - والمتمم ... لـ «الرد» على ملاحظاتى النقدية. وأعتقد أن هذا الواقع وحده يكفى لإظهار جانب من «الأمراض المتفشية فى الوسط الثقافى عندنا» والتى يتحدث عنها سمير غريب - يتحدث وحسب - كثيراً!

سمير غريب منتحلا

عندما كتبت ملاحظاتى النقدية الموجزة التى نشرتها هذه المجلة فى عدد يونيو الماضى لم أكن قد قرأت بعد كتاب ساران اليكسندريان عن جورج حنين. وعندما وصلتنى نسخة من الكتاب فوجئت عند الاطلاع عليها بأن سمير غريب قد استولى على شرائح لا بأس بها من كتاب اليكسندريان وأعاد تسكينها - من خلال عملية مونتاج مكشوفة - ضمن كتابه الذى لايتجاوز متنه الرئيسى ١١٥ صفحة!

وجلى أن إشارة سمير غريب بين الحين والآخر، إلى كتاب اليكسندريان لاتلعب غير

دور ثانوى: دور ذر الرماد فى عيون القراء بينما يجرى التستر على مصدر الكلام فى أغلب الحالات.

ويجد القارئ مع هذه الملاحظات صورتين كاشفتين للمهزلة، التى لايتحمل المسئولية عنها سوى سمير غريب وحده!.

فى مجموعته الشعرية « لا معقوليات الوجود »(١٥٢) التى أصدرها عام ١٩٣٨ تشكلت لغته الشعرية · يكشف جورج حنين فى هذه المجموعة الموزونة عن اهتمامه بالخلاص من لغة نمطية · معظم مقاطعها تعتمد على الوحدة المنتظمة لبيت واحد ، يكرره عدة مرات من البداية للنهاية على رأس كل مقطع · هذا البيت يخدم القصيدة فى استدعاء صور متعاقبة وفى ايقاع الحركة فى نفس الوقت القصيدة اذن فى هذه المجموعة معادل حديث للقصيدة الغنائية فى الشعر القديم ·

افتتح جورج حنين « لا معقوليات الوجود » بقصيدة عن الحرب الأهلية الأسبانية اسمها « لا ـ تدخل » · طبعها بحروف « ايطالية » ـ حروف طباعة مائلة وضعت فى البندقية بايطاليا حوالى عام ١٥٠٠ ـ ليبين انها نوع من التمهيد وليست التزاما بشعر المناسبات · بالنسبة لسريالى مثل جورج حنين تكون الورقة مكانا لالتقاء الحنين بالرغبات الانسانية ، وليست لعكس حدث سياسى ، بل لعكس الحدث الشعرى الكبير وهو الخالد ·

كتب هنرى كاليه ، الذى يميل الى الجماهيرية ، خطابا الى جورج حنين فى ٤ ديسمبر ١٩٣٨ بعد قراءته لهذه القصائد يقول فيه : « أفضل « لا ـ تدخل » ثم « بلوز من سان لوى » ربما بسبب هذا النبض ، أو بسبب نبضات القلب التى تشكل ايقاعها · انت فيهما غارق فى الحب ! فى الدم ! فى الصديد ! فى الحياة » ·

جاءت مجموعة جورج حنين الشعرية « المتنافر » (١٥٣) ـ التى أصدرها بعد ١٠ سنوات من « لا معقوليات الوجود » ـ لتؤكد خواص أسلوبه · باستثناء تراجع الاحساس المقاتل ضد سخرية العالم امام عبث الوجود · ويمكن ان يقال فى « المتنافر » نفس الرأى الذى أبداه بريتون فى مجموعة جورج حنين « منظورات » التى أهداها له · فقد قال له

(١٥٢) Georges Henein, Déraisons d'être poèmes, José Corti, Paris, 1938.

(١٥٣) Georges Henein, L'incompatible, Poèmes. La Part du sable, Le Caire. 1953.

٧٦

En novembre 1938, Henein fit paraître chez José Corti *Déraisons d'être*, plaquette illustrée par des dessins de Kamel Telmisany qu'il y qualifiait de « bolide crépu qui arrache à la tiédeur de leur digestion tous les rentiers de l'aventure et qui renverse d'un geste négligent les paysages où se dilatent les hommes satisfaits d'exister ». Dans *Déraisons d'être*, le langage poétique d'Henein est définitivement constitué. Il y révèle le souci d'échapper, par une scansion rythmique, au verbe amorphe auquel la versification libre aboutit trop souvent. Henein construit le plus souvent une pièce versifiée

22

sur le retour périodique d'un même vers, répété plusieurs fois du début à la fin ; le poème est alors un équivalent moderne de la ballade ou du rondeau de l'antique poésie. Ce vers est placé en tête de strophe, servant à la fois d'appel à une suite d'images et de martèlement du tempo. Ses proses obéissent aussi à des cadences secrètes, moins redevables aux leitmotive (qui y sont rares) qu'aux coupes variées des phrases.

Henein ouvrit *Déraisons d'être* par un poème évoquant la guerre d'Espagne, *Non-Intervention* ; mais il le fit imprimer en italique pour bien montrer qu'il s'agissait d'une sorte de préface, et non d'une concession à la poésie de circonstance. Pour un surréaliste, la page d'écriture est le lieu de rencontre de toutes les nostalgies et de tous les désirs humains ; elle n'a pas à refléter l'actualité politique, qui n'a qu'un temps (heureusement !), mais « la grande actualité poétique », qui est éternelle. Henri Calet, dont le goût se limitait au populisme, écrivit à Henein le 4 décembre 1938, après avoir lu les poèmes de ce recueil : « Je les connaissais presque tous. Celui que je préfère est *Non-Intervention*, et puis aussi *Saint-Louis blues*. Les deux peut-être à cause de cette pulsation, de ces battements du cœur qui en sont le rythme. Vous êtes là en plein dans l'amour, dans le sang, dans la sanie, dans la vie ». Les autres textes valent tout autant par le chatoiement des métaphores, véritable mérite du poète.

23

حول ما يسمى
بـ «التروتسكية المصرية»
بين عامى ١٩٣٨ و ١٩٤٨

يبدو أن وصف «تروتسكيين» قد استُخدم لأول مرة فى السجالات الكلامية فى أوساط اليساريين المصريين فى أواخر الثلاثينيات. وقد استخدم هذا الوصف من جانب عناصر ستالينية فى سجالاتها غير المبدئية مع عناصر ستالينية أخرى. كما استُخدم من جانب مختلف الجماعات الستالينية فى سجالاتها مع عناصر يسارية مصرية مناهضة للستالينية، فى وقت أو آخر ومن منطلقات مختلفة، دون أن تكون منتمية إلى الأممية الرابعة أو دون أن تكون تروتسكية أرثوذكسية. فخلال الفترة الممتدة من عام ١٩٣٨ إلى عام ١٩٤٨ لم يكن للتروتسكية وجود فى المشرق العربى إلا فى فلسطين.

ويبدو أن أول من استخدم وصف «تروتسكيين» للإشارة إلى خصومه هو الستالينى السويسرى المعروف بول جاكو ديكومب ورفاقه وتلاميذه (انظر، أحمد صادق سعد: صفحات من اليسار المصرى فى أعقاب الحرب العالمية الثانية، ١٩٤٥ - ١٩٤٦، مكتبة مدبولى، القاهرة، ١٩٧٦، ص ٤٠).

ويرتبط اسم بول جاكو ديكومب فى تاريخ الحركة اليسارية المصرية بـ «الرابطة السلمية» التى يذكر جيل بيرو أن كثيرين من المثقفين الأجانب والمتمصرين قد انضموا إليها خلال الفترة الممتدة من عام ١٩٣٤ إلى عام ١٩٣٩ (انظر، جيل بيرو: هنرى كورييل، رجل من طراز فريد، دار النضال، بيروت، ١٩٨٦، ص ٩٣).

والحال أن «الرابطة السلمية» قد ارتبطت بالتيار الذى كان قد انبثق عن مؤتمر امستردام الدولى لمناهضة الحرب والذى كان قد انعقد فى أغسطس ١٩٣٢ تحت هيمنة قوية من جانب الستالينيين، فى ذات الوقت الذى انعقد فيه فى موسكو الاجتماع الموسع الثانى عشر للجنة التنفيذية للكومنترن الستالينى، وهو الاجتماع الذى قلل من خطر الفاشية فى ألمانيا واستبعد مهمة إنشاء جبهة عمالية متحدة تستند إلى تحالف الشيوعيين والاشتراكيين الديموقراطيين لدرء هذا الخطر مؤكداً، شأنه فى ذلك شأن الاجتماع الموسع الذى سبقه، على ضرورة «توجيه الضربة الرئيسية ضد الاشتراكية الديمقراطية» (انظر: Institute of Marxism - Leninism, Central Committee Of the CPSU, Outline History Of the Communist International, Progress Publishers, Moscow, 1971, PP. 328 - 329.

ومثلما استبعد الستالينيون مهمة إنشاء جبهة عمالية متحدة لدرء خطر الفاشية، فإنهم قد استبعدوا أيضاً – فى مؤتمر أمستردام – هذه المهمة لدرء خطر الحروب وآثروا التحالف مع دعاة المسالمة، والبورجوازيين الليبيراليين فى البلدان الرأسمالية المتقدمة، والبورجوازيين القوميين الليبيراليين فى البلدان المستعمرة. وقد سخر تروتسكى فى سبتمبر ١٩٣٢ من مسلك الستالينيين فى مؤتمر أمستردام وكتب: «فى وجه الحرب، صوت الستالينيون إلى جانب قرار دبلوماسى وحذر ورخو فى أمستردام، اقترحه الجنرال فون شوينايخ، والماسون الأحرار الفرنسيون، والبورجوازى الهندى باتيل، الذى يعتبر غاندى مثله الأعلى» (Leon Trotsky, The Spanish Revolution 1931, Pathfinder Press, New York, 1973, P. 185).

وكان الجنرال بول فون شوينايخ (١٨٨٦ – ١٩٥٤) أحد ضباط البحرية من اليونكرز الألمان ثم تحول إلى واحد من دعاة المسالمة ونشر فى الصحف الألمانية مقالات متعاطفة مع روسيا الستالينية، بينما شكل الماسون الأحرار الفرنسيون، ذوو التقاليد الليبيرالية، حلقة وصل بين الحركة الاشتراكية والجناح اليسارى للبورجوازية. وقد نظر إليهم تروتسكى على أنهم يشكلون آلية لإفساد الحركة الاشتراكية. أما فالابهبهاى باتيل (١٨٧٧ – ١٩٥٠) فقد كان أحد ممثلى البورجوازية الهندية، وقد صار عضواً فى الحكومة بعد إعلان استقلال الهند (انظر، (Ibid., P. 414).

والحال أن نشاط «الرابطة السلمية» التى أسسها ديكومب فى مصر قد عكس الموقف الأصلى الذى كان الستالينيون قد اتخذوه فى مؤتمر أمستردام والذى شجبه تروتسكى. فبدلاً من الاتجاه إلى الجماهير الرازحة تحت نير الإمبريالية البريطانية، حرصت «الرابطة السليمة» على توثيق الأواصر مع عدد من الزعماء الوفديين وشخصيات من الحركة النسائية البورجوازية وعلى ترتيب لقاءات بين زعماء حزب الوفد المصرى وحزب المؤتمر الهندى (انظر: د. رفعت السعيد: تاريخ المنظمات اليسارية المصرية، ١٩٤٠ – ١٩٥٠، دار الثقافة الجديدة، القاهرة، ١٩٧٦، ص ١٦٧). وبعبارة أخرى، فإن «المدخل إلى الجماهير لم يكن ليمر عبرها» (جيل بيرو، مصدر سبق ذكره، ص ٩٣). و «من الطبيعى أن عملها ظل فى دائرة محصورة من الأجانب فى هذا الوقت. فعدو مصر كان الاستعمار البريطانى، وكان من الصعب على المواطنين العاديين أن يهتموا بعدو آخر ... كانت بعض الاتجاهات الثورية الوطنية المعارضة لأسلوب المفاوضات ترى فى الكفاح المسلح ضد الاحتلال الأسلوب الرئيسى – وقد يكون الوحيد – الناجح لطرد المستعمرين. ولذلك لم يكن التيار الوطنى يرتاح إلى المناداة بالسلام

ويفهمها على أنها تحبذ الأساليب السلمية فقط ويعتبرها استسلاما للاستعمار» (أحمد صادق سعد: مصدر سبق ذكره، ص ٣٩).

وطبيعي أن رابطة كهذه كان من المستحيل تماماً أن تتسع لأية توجهات سياسية تروتسكية في مجال درء خطر الحرب. ولم يكن هناك ما يدعو أية عناصر تروتسكية محتملة إلى التفكير، مجرد التفكير، في الإنتماء إلى رابطة كهذه تتميز، علاوة على ذلك، بعزلتها الشديدة عن الجماهير العمالية المصرية.

والحال أن خلافاً قد نشب في أواخر الثلاثينيات داخل «الرابطة» - عشية حلها - وضع راءول كورييل وريمون أجيون ومارسيل إسرائيل وآخرين في مواجهة مع ديكومب الذى اتهموه بحصر نشاط الرابطة ضمن أطر ضيقة، خاصة وأن ديكومب قد رفض اقتراحاً قدمه مارسيل إسرائيل بضم مجموعة من الإيطاليين المناهضين للفاشية إلى الرابطة. وقد اتهم راءول كورييل وأصدقاؤه ديكومب بالعصبوية الناشئة - في جانب منها - عن ميل الأخير إلى رؤية عملاء استفزازيين في كل مكان. وقد اعترف ديكومب بأن راءول كورييل وأصدقاءه حاولوا توسيع مجال الرابطة وقال: «أنا خشيت أن يهدد نشاطهم كيان الجمعية (يقصد «الرابطة السلمية») وأن يكشفنا البوليس السرى» (انظر، د. رفعت السعيد: الصحافة اليسارية في مصر ١٩٢٥ - ١٩٤٨، مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٩٧٧، ص ١٠٩). وقد سارع راءول كورييل وأصدقاؤه إلى تقديم استقالاتهم من الرابطة في أواخر عام ١٩٣٨. لكن ديكومب رفض قبول استقالاتهم وقام بدلاً من ذلك بفصلهم بتهم مثل عدم الانضباط و «عدم تسديد اشتراكاتهم» (أحمد صادق سعد: مصدر سبق ذكره، ص ٤٠) وأعقب ذلك وصفهم بأنهم «تروتسكيون». وكانت تلك هي المرة الأولى التي يستخدم فيها هذا الوصف في سياق خلافات بين يساريين مصريين. وبعد نحو ثمانية وثلاثين عاما من فصل راءول كورييل وأصدقائه، وصفهم أحمد صادق سعد (ولد عام ١٩١٩) أحد تلامذة ديكومب، بأنهم كانوا يمثلون «مجموعة تروتسكية» (أحمد صادق سعد: مصدر سبق ذكره، ص ٤٠)، بينما اعتبر د. عبد العظيم رمضان هذا الكلام «على جانب كبير من الأهمية التاريخية» (د. عبد العظيم رمضان: «مقدمة تحليلية»، انظر، أحمد صادق سعد: مصدر سبق ذكره، ص ٢١).

لماذا هذا الوصف بالتحديد دون سواه؟

إن حملة الافتراءات التي بدأت ضد تروتسكي منذ عام ١٩٢٣ قد بلغت ذروتها في

محاكمة موسكو الاستعراضية فى عام ١٩٣٨، حيث جرت محاكمة تروتسكى غيابيا - بتهم من بينها التجسس لحساب الجستابو النازى والنشاط التخريبى. وسرعان ما أصبحت كلمة «تروتسكية» تعنى عند الستالينى العادى - من طراز ديكومب وتلامذته والكوريليين المصريين - التجسس والنشاط التخريبى. فهى لاتشير إلى اتجاه سياسى داخل الحركة العمالية العالمية بل تشير إلى نشاط مشبوه ضد هذه الحركة، بينما كان ميليوكوف، المؤرخ وقائد حزب الكاديت الروسى، والذى «كان لينين يعتبره سياسياً بارزاً ... وكان مؤرخاً كبيراً لم تفقد مؤلفاته أهميتها العلمية حتى يومنا هذا» (صحيفة «أنباء موسكو»، ٨ فبراير ١٩٨٧، ص ٩ و ص ١٤)، والذى كان أول من ابتدع كلمة «تروتسكية»، خلال ثورة ١٩٠٥ - ١٩٠٧ فى روسيا، قد استخدم هذه الكلمة للإشارة إلى المزاج الثورى لبروليتاريا سان بطرسبورغ، حيث كان تروتسكى رئيسا لسوفييت نواب عمال عاصمة الإمبراطورية القيصرية.

والحال أن الصورة التى روجتها محاكمة موسكو فى عام ١٩٣٨ قد رسمت بهدف استئصال شأفة الماركسية الثورية داخل الحركة العمالية العالمية وإحكام سيطرة البيروقراطية الستالينية على هذه الحركة. وقد قبل ديكومب وتلامذته هذه الصورة وعملوا على ترويجها. ولم يجد أحمد صادق سعد حرجاً فى أن يكتب أن تروتسكى قد تكشف عن مجرد «خائن وعميل للفاشية» (أحمد صادق سعد: مصدر سبق ذكره، ص ٢٥٦). وقد جاء هذا الوصف فى مقال بمناسبة ذكرى ثورة أكتوبر الثامنة والعشرين التى كان ستالين قد كتب فى ذكراها الأولى أن «كل عمل التنظيم الفعلى للانتفاضة قد تم تحت القيادة المباشرة لرئيس سوفييت بتروجراد، الرفيق تروتسكى» (برافدا، ٦ نوفمبر ١٩١٨). لكن أحمد صادق سعد كان يردد افتراءات عام ١٩٣٨ والتى شكلت «تتويجاً» لجهود تزويرية كانت قد بدأت بشكل خجول قبل ذلك بخمسة عشر عاماً.

وعلى الرغم من استبعاد ورثة ستالين لهذه التهمة (انظر، History of the Communist Party of the Soviet Union, F. L. P. H, Moscow, n. d. (1964?, P. 505) فإن أحمد صادق سعد، عندما أعاد نشر مقالاته التى كان قد ساهم بها فى مجلة «الفجر الجديد»، وجد أن من غير المناسب سحب هذه التهمة عبر تعليقاته على مقالاته بينما وجد أن من المناسب الاعتذار عما وصفه بـ «فجاجة» هجومه فى أحد مقالاته على مؤازر الفاشية المصرى أحمد حسين! (انظر، أحمد صادق سعد: مصدر سبق ذكره، ص ٢٦٤). وقد اعتبر د. رفعت السعيد، سخرية أنور كامل من اتهام تروتسكى بالجاسوسية «جرما»، وذلك فى كتاب أصدره فى ذات العام الذى أعاد أحمد صادق سعد نشر مقالاته فيه (انظر، د. رفعت

السعيد: تاريخ المنظمات اليسارية المصرية، ١٩٤٠ - ١٩٥٠، دار الثقافة الجديدة، القاهرة ١٩٧٦، ص ١٥٩)، وهو ما يشير إلى تخلف تلامذة ديكومب وهنرى كورييل - على حد سواء - عشرين سنة على الأقل فى مدرسة التزييف الستالينية، غير قادرين على استيعاب دروسها الجديدة التى بدأ تلقينها منذ عام ١٩٥٦. فمنذ ذلك التاريخ، أصبح المتهم بالجاسوسية هو لافرينتى بيريا، الساعد الأيمن لستالين، لاتروتسكى ولابوخارين ولاتوخاتشيفسكى.

والحال أن كل ما حدث هو أن ديكومب قد نقل إلى التربة المصرية ممارسة كانت معتمدة من جانب مجمل الحركة الستالينية العالمية. مثال ذلك أن هذه الحركة قد وصفت حزباً بأكمله، هو الحزب العمالى للتوحيد الماركسى، فى أسبانيا، بأنه حزب تروتسكى، رغم سجالات تروتسكى العنيفة ضد هذا الحزب، وذلك لمجرد أن هذا الحزب لم يكن مستعداً للاندراج فى الكورس الستالينى! وقد اغتال الستالينيون أندريه نين، زعيم الحزب المذكور وأحد ألد أعداء الفاشية فى إسبانيا. وحتى وقت غير بعيد جداً، كان المؤرخون السوفييت يتعاملون مع هذا الحزب باعتباره حزباً تروتسكيا (انظر: ف. م. إيفانوف، أ. ن. شميليف: اللينينية والهزيمة الفكرية - السياسية للتروتسكية، لينزدات، لينينجراد، ١٩٧٠، ص ٤٧٨ «بالروسية»).

وعلاوة على ما سبقت الإشارة إليه فيما يتعلق بموقف تروتسكى من مؤتمر أمستردام وتعارض التوجهات السياسية التروتسكية مع فكرة الروابط من النوع الذى سانده الستالينيون أعتقد أن من شأن إشارة سريعة إلى سيرة راءول كورييل السياسية أن تكون كافية لإبراز حقيقة أنه لم يكن تروتسكيا فى أى وقت من الأوقات، خلافاً لمزاعم أحمد صادق سعد.

كان راءول كورييل (ولد عام ١٩١٣)، بعد عام واحد من فصل تروتسكى من الحزب الشيوعى السوفييتى وقبل أقل من عام على نفيه من الاتحاد السوفيتى، أى منذ عام ١٩٢٨، منتمياً إلى جمعية أصدقاء الاتحاد السوفيتى. وكانت الجمعيات من هذا النوع عبارة عن شلل لاوزن لها، تضم بين صفوفها، شأنها فى ذلك شأن «الرابطة السلمية»، مسالمين بورجوازيين وصحفيين فابيين، مثل الزوجين سيدنى وبياتريس ويب، وعناصر ماسونية تنتمى إلى مختلف المحافل ... إلخ. وقد شاركت مثل هذه الجمعيات فى الافتراء على تروتسكى، القائد البارز لانتفاضة أكتوبر وقائد الجيش الأحمر إلى الانتصار فى الحروب الأهلية وحروب التدخل، الذى رد لأبرز ممثليها - ذوى الماضى المعادى لثورة أكتوبر فى حالات كثيرة - الصاع صاعين، مركزاً، بشكل خاص، على تاريخ الزوجين ويب الأسود.

وقد أمضى راءول كوريل خمس سنوات متواصلة فى فرنسا للدراسة بين عامى ١٩٣٣ و١٩٣٨ حيث لم يعد إلى مصر إلا فى أكتوبر من العام الأخير.

وخلال تلك الفترة كان منتمياً إلى اتحاد الطلاب الاشتراكيين التابع للشعبة الفرنسية للأممية العمالية (الحزب الاشتراكى الفرنسى). وعندما قرر ليون بلوم (١٨٧٢ - ١٩٥٠) زعم الحزب الاشتراكى، ورئيس وزراء حكومة الجبهة الشعبية - التى كانت قد وصلت إلى الحكم بدعم من الستالينيين - عدم التدخل إلى جانب الجمهوريين الأسبان، بموجب ميثاق عدم التدخل الموقع بين فرنسا والمملكة المتحدة فى ١٥ أغسطس ١٩٣٦، تقارب راءول كوريل مع الحزب الشيوعى الفرنسى الذى واصل دعم حكومة الجبهة الشعبية بأصوات نوابه فى الجمعية الوطنية الفرنسية، رغم خيانة بلوم للجمهوريين الأسبان.

وعندما عاد راءول كوريل إلى مصر فى أكتوبر ١٩٣٨ انضم إلى «الرابطة السلمية» التى سرعان ما استقال منها للأسباب التى سبقت الإشارة إليها (عصبوية ديكومب وتخوفه من توسيع نشاط الرابطة) لكى يؤسس، بالاشتراك مع ريمون اجيون، وهنرى كوريل، ومارسيل إسرائيل، وجورج بوانتيه (الستالينى السويسرى)، وساندور روكا، وكيبريو، وأحمد الأهوانى ومحمد نصر الدين «الاتحاد الديمقراطى» فى مستهل عام ١٩٣٩.

وقد شكل أغلب المذكورين اللجنة القيادية للاتحاد، وكان مارسيل إسرائيل هو أمين هذه اللجنة. وقد حصلوا على مساعدات مالية سخية من المليونير دانييل نسيم كوريل (والد راءول وهنرى) وتمتعوا بتعاطف أحد المحافل الماسونية، مواصلين جانبا من تقاليد «الرابطة السلمية». ولم يكن بين أعضاء اللجنة القيادية للاتحاد تروتسكى واحد مما يشهد على زيف ادعاء الدكتور عبد العظيم رمضان، استناداً إلى رواية أحمد صادق سعد، أن «الاتحاد الديمقراطى» قد تكون على يد «تروتسكيين» منسلخين من «الرابطة السلمية» (د. عبد العظيم رمضان: مصدر سبق ذكره، ص ٢١). لقد رحب راءول كوريل وجورج بوانتيه باتفاق هتلر - ستالين الذى وقعه رينتروب، وزير خارجية ألمانيا، ومولوتوف، وزير خارجية الاتحاد السوفييتى، فى موسكو فى ٢٣ أغسطس ١٩٣٩، وهو الاتفاق الذى اعتبره التروتسكيون افتتاحاً لـ «صفحة من أسود صفحات سياسة ونشاط الأممية الشيوعية والأحزاب الشيوعية «الستالينية» (Pierre Frank, Histoire de l'international Communiste, 2 Editions la Breche, Paris, 1981, P. 823) وغداة إعلان المملكة المتحدة وفرنسا الحرب على ألمانيا فى ٣ سبتمبر ١٩٣٩، سارع راءول كوريل إلى تسجيل اسمه فى القنصلية

الفرنسية متطوعاً (فعل أخوه الشئ نفسه)، رهن إشارة الأركان العامة لجيش فرنسا الإمبريالية، فى حرب اعتبرها التروتسكيون حرباً غير عادلة بين دول إمبريالية يتعين على الثوريين تحويلها إلى حرب أهلية. وقد فعل ذلك حتى قبل سقوط باريس وتوقيع بيتان اتفاق الهدنة مع الألمان.
ويذكر أحمد صادق سعد أن الاتحاد الديمقراطى «قد أصدر بيانا يؤيد فيه فرنسا وانجلترا ضد ألمانيا» (أحمد صادق سعد: مصدر سبق ذكره، ص ٤٢). إلا أن أحمد صادق سعد يزور التاريخ، مرة، حين يحاول الإيحاء بأن هذا الموقف كان موقف تروتسكيين ويزور التاريخ، مرة أخرى، حين يزعم أن موقف الكومنترن خلال تلك الفترة كان «هو الدعوة إلى قلب الحكم الرأسمالى فى أوروبا» (أحمد صادق سعد، مصدر سبق ذكره، ص ٤٢) فقد تمثل موقف التروتسكيين فى الدعوة إلى الإنهزامية الثورية فى كل من فرنسا وانجلترا وألمانيا وإيطاليا بينما كان موقف الكومنترن الستالينى، فى فترة الاتفاق الروسى الألمانى، وقبل الهجوم النازى على الاتحاد السوفييتى، ليس «الدعوة إلى قلب الحكم الرأسمالى فى أوروبا» بل الدعوة إلى انهزامية من نوع خاص، لاعلاقة لها بالانهزامية الثورية اللينينية، الدعوة إلى انهزامية من جهة واحدة فقط على حساب فرنسا والمملكة المتحدة ولحساب ألمانيا النازية.

(P. Frank, Op. Cit., P. 831)

وقد شارك راءول كورييل، فى ديسمبر ١٩٣٩، فى إصدار صحيفة «دون كيشوت» التى أراد لها أن تكون على غرار جريدة «ماريان» الباريسية غير التروتسكية. وعندما أعلنت الهدنة بين فرنسا البيتانية وألمانيا الهتلرية، ذهب إلى أحد الآباء اليسوعيين ليجد لديه العزاء والسلوى: «ليست الهدنة مأساة! إنها العقاب العادل الذى استحقته فرنسا إذ تحالفت مع أمة بروتستانتية» (يقصد انجلترا!) [المعلومات البيوجرافية عن راءول كورييل مستمدة من جيل بيرو: مصدر سبق ذكره، صفحات مختلفة].

ومن الجلى أن سيرة سياسية كهذه لايجمع بينها وبين السيرة السياسية لأى مناضل تروتسكى فى ذلك الوقت أى جامع. ولايمكن اعتبار راءول كورييل تروتسكيا إلا عبر تشويه مواقف التروتسكية المعروفة تجاه عدد كبير من المسائل المهمة خلال الثلاثينيات ومستهل الأربعينيات، وهو تشويه لامفر من أن يدمغ من يحاولون تجربته، فى أحسن الأحوال، بالحماقة النادرة، لأن مواقف التروتسكية من الحرب خلال فترة ١٩٣٩ - ١٩٤١ أشهر من نار على علم وقد جسدت فى بيان الأممية الرابعة الصادر عن مؤتمر مايو ١٩٤٠، والذى وصف الحرب الدائرة بين قوى أوروبا الاستعمارية بأنها «حرب إمبريالية» ذلك أن «السبب

المباشر للحرب الدائرة هو التنافس بين الإمبراطوريتين الاستعماريتين القديمتين: بريطانيا العظمى وفرنسا واللصين الإمبرياليين المتأخرين: ألمانيا وإيطاليا».

(Jean-Jacques Marie, Trotsky: Textes et Débats, L. G. F., Paris, 1984, PP. 413 - 14)

وبينما أصر التروتسكيون على اعتبار الحرب حرباً إمبريالية من جانب الأطراف المذكورة كلها، كانت مجلة الكومنترن الستالينى **إنترناسيونال كوميونيست** تعلن فى يناير ١٩٤٠ - وسط الحرب الدائرة - «أن النضال الأممى للطبقة العاملة ضد النظام الإمبريالى العالمى يتطلب تركيز القوى ضد العدو الرئيسى الراهن فى ساحة السياسة الدولية ... لقد أصبحت الإمبريالية البريطانية .. العدو الرئيسى للطبقة العاملة العالمية». وقد ورد هذا الكلام وسط صمت تام عن أهداف الإمبريالية الألمانية. واستمر هذا الموقف حتى اعتداء هتلر على الاتحاد السوفييتى. ففى افتتاحية المجلة المذكورة فى أول مايو ١٩٤١ لم يرد ولو مرة واحدة أى ذكر لكلمتى النازية أو الفاشية، بل لم يرد أى ذكر لأسماء هتلر أو موسولينى أو حتى فرانكو وذلك فى مقال من إحدى عشرة صفحة موجه إلى الطبقة العاملة فى عيد أول مايو! وهو ما يعنى أن موقف «الاتحاد الديمقراطى» الذى لاعلاقة له من قريب أو من بعيد بموقف التروتسكيين من الحرب ليس أكثر خزياً من موقف الكومنترن الستالينى! ومن الشطط والسخف تسوية حسابات تاريخية بين الديكومبيين والكوريليين على حساب التروتسكية. لكن التاريخ يبين أن مثل هذه الأمور تحدث غالباً عندما تمسك إحدى الشيع العصبوية بخناق شيعة عصبوية أخرى! وهكذا يجرى زج اسم تروتسكى فى قتال محزن بين شقيقين!

أما ريمون اجيون (ولد عام ١٩٢٠) فقد قضى جانباً من الثلاثينيات فى فرنسا للدراسة وكان، إلى حد ما، على يسار راءول كوريل. فهو قد اندمج فى تجمع «اليسار الثورى» الذى قاده مارسو بيفير داخل الشعبة الفرنسية للأممية العمالية (الحزب الاشتراكى الفرنسى).

والحال أن مارسو بيفير (١٨٩٥ - ١٩٥٨) كان أحد القادة البارزين لتجمع «المعركة الاشتراكية» داخل الحزب الاشتراكى الفرنسى، ثم أحد أبرز قادة تجمع «اليسار الثورى» الذى تشكل داخل الحزب المذكور فى عام ١٩٣٥. وعندما أصدرت قيادة الحزب أمراً بحل هذا التجمع فى عام ١٩٣٧، ترك بيفير وانصاره الحزب الاشتراكى وأسسوا فى عام ١٩٣٨ الحزب العمالى والفلاحى الاشتراكى الذى سارع إلى الإنتماء إلى مايسمى بـ «مكتب لندن للأحزاب الاشتراكية الثورية»، والذى كان عبارة عن اتحاد لامركزى لأحزاب الوسط

الماركسى غير المنتمية لا إلى الأممية الثانية ولا إلى الأممية الثالثة، حيث كانت هذه الأحزاب على يسار كل من الأمميتين خلال الشطر الثانى من الثلاثينيات، وكانت تعارض فى الوقت نفسه إنشاء أممية رابعة، خلافاً لموقف الأحزاب والجماعات التروتسكية التى دعت إلى تأسيس أممية رابعة منذ عام ١٩٣٣ ، وعندما تأسست الأممية الرابعة بالفعل فى عام ١٩٣٨ ، تعرضت لهجوم شديد من جانب هذه الأحزاب، وقد قاد الإنجليزى فينر بروكواى (ولد عام ١٨٩٠) ، أمين مكتب لندن، هذا الهجومَ مستشعراً الخطر من جراء تأسيس أممية لليسار الماركسى.

وكان من بين الأحزاب المنتمية إلى مكتب لندن الحزب العمالى الاشتراكى الألمانى، وحزب العمل المستقل فى بريطانيا العظمى، والحزب العمالى للتوحيد الماركسى فى أسبانيا، والحزب العمالى والفلاحى الاشتراكى فى فرنسا (حزب مارسو بيفير).

وقد تعرضت هذه الأحزاب ومكتب لندن لانتقادات عنيفة من جانب تروتسكى والتروتسكيين. وعندما تفجرت الاضرابات فى فرنسا بعد انتصار الجبهة الشعبية الانتخابى، كتب تروتسكى فى ٥ يونيو ١٩٣٦ : «إن التنظيم الذى لم يجد سنداً فى الحركة الإضرابية الجارية، والذى لم يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالعمال فى مجرى النضال، غير جدير باسم تنظيم ثورى. وسوف يكون من الأفضل لأعضائه أن يبحثوا لأنفسهم عن مكان فى بيوت المسنين أو فى المحافل الماسونية (برعاية م. بيفير) (J. J. Marie, Op. Cit., PP. 301 - 2).

ويشير بيير فرانك، أحد قادة التروتسكيين الفرنسيين وأحد قادة ومؤرخى الأممية الرابعة إلى أن النضال ضد حزب مارسو بيفير ومختلف الأحزاب المنتمية إلى مكتب لندن، خلال الثلاثينيات ومستهل الأربعينيات، كان «أحد النضالات الكبرى .. التى هيمنت على نشاط حركتنا الأممية» (P. Frank, La Quatriéme Internationale, F. M., Paris, 1969, P. 38) ومع تيار أحزاب أممية مكتب لندن هذه، لا مع الأممية الرابعة التروتسكية، كانت تعاطفات ريمون أجيون. وكانت فكرة إصدار صحيفة «دون كيشوت» فكرة راءول كورييل وريمون اجيون بالأساس. وقد اختارا هذا الاسم «احتراماً لذكرى جابرييل آلومار، السفير السابق لإسبانيا الجمهورية فى القاهرة» (جيل بيرو، مصدر سبق ذكره، ص ٧٤).

وقد استند من تحدثوا عن «تروتسكية» صحيفة «دون كيشوت» إلى واقع انها قد نشرت فى باب السياسة الدولية مقالات تنتقد السياسة السوفييتية انتقاداً حاداً، وكأن انتقاد السياسة السوفييتية خلال الفترة التى ظهرت فيها الصحيفة (ديسمبر ١٩٣٩ - أبريل ١٩٤٠) كان

شيئاً قاصراً على التروتسكيين ولم تندرج فيه مختلف التيارات الاشتراكية التى استنكرت اتفاق هتلر – ستالين! والحال أن الذى كتب هذه المقالات هو البيفيرى ريمون اجيون الذى لم ينتم إلى أى تجمع تروتسكى عندما كان فى فرنسا!.

أما مارسيل إسرائيل (ولد عام ١٩١٤) فقد ارتبط بالستالينى اللبنانى المعروف نقولا الشاوى. وقد توطدت عرى الصداقة بينهما عندما زار مارسيل إسرائيل بيروت فى أواخر عام ١٩٣٨ . وأثناء تلك الزيارة، رتب الشاوى لقاء مع مادويان مسئول الكومنترن عن الشرق الأوسط، حيث تبادلا الآراء حول الموقف فى مصر. وكان مارسيل إسرائيل آنذاك عضوا فى اللجنة القيادية لـ «الرابطة السلمية» .

وجلى أنه من قبيل الهذيان الادعاء بأن صداقة سياسية وطيدة كتلك التى نشأت بين إسرائيل والشاوى وتبادلاً للآراء كذلك الذى حدث بين إسرائيل ومادويان يصلحان دليلين على «تروتسكية» مارسيل إسرائيل!

وعندما انسحب مارسيل إسرائيل، بعد عودته من بيروت فى أواخر ١٩٣٨، من «الرابطة السلمية» انهمك مع آخرين، فى تأسيس «الاتحاد الديمقراطى» فى مستهل عام ١٩٣٩ واختير أمينا للجنة القيادية للاتحاد. وقد شارك إسرائيل، منذ أوائل يناير ١٩٣٩، فى نشاط جماعة «الفن والحرية». ويبدو أن اشتراك إسرائيل فى نشاط هذه الجماعة هو الذى أوحى للدكتور عبد العظيم رمضان بأن الجماعة قد تفرعت عن «الاتحاد الديمقراطى» (انظر، د. عبد العظيم رمضان: الفكر الثورى فى مصر قبل ثورة ٢٣ يوليو، مكتبة مدبولى، القاهرة، ١٩٨١، ص ٥٢) وهو تصور لايستند إلى أساس لأن اشتراك إسرائيل فى نشاط الجماعة ليس معناه «تفرع» الأخيرة عن الاتحاد.

وقد انسحب مارسيل إسرائيل من الاتحاد فى أواخر عام ١٩٣٩ عندما وجد أن هنرى كورييل – عضو اللجنة القيادية للاتحاد – قد حول «الاتحاد الديمقراطى» إلى «اتحاد أرستقراطى» بضمه إليه «كل أصدقائه البورجوازيين الكبار» (جيل بيرو: مصدر سبق ذكره، ص ١٥٥).

وقد انهمك إسرائيل بعد ترك «الاتحاد الديمقراطى» فى تأسيس منظمة «تحرير الشعب» التى بدأت بعشرة أعضاء مصريين فى عام ١٩٤٠ . وكان إسرائيل قد قدم هؤلاء المناضلين إلى طاهر المصرى، الذى كان عضوا فى الحزب الشيوعى الفرنسى عندما كان يدرس فى باريس. وقد حضر المصرى الاجتماع التأسيسى الذى عقد سراً فى بولاق.

وقد أفاد مناضلو منظمة «تحرير الشعب» من علنية جماعة «الخبز والحرية» وكانوا يحركون جماعة علنية أخرى كانت تعمل وسط الأجانب بشكل رئيسى، حملت اسم «ثقافة وفراغ».

ومع اقتراب قوات روميل من العلمين، رحل إسرائيل عن مصر إلى فلسطين فى عام ١٩٤٢. وناضل فى صفوف الحزب الشيوعى الفلسطينى ذى النفوذ القوى داخل الأممية الثالثة. ولم يتصل بالتروتسكيين الفلسطينيين الذين كانوا قد أعلنوا فى عام ١٩٣٨ وقوفهم إلى جانب الحركة القومية العربية ودعمهم غير المشروط لوقف الهجرة اليهودية إلى فلسطين ووقف شراء اليهود للأراضى وإنشاء سلطة عربية (انظر، N. Weinstock, Zionism: False Messiah, lnk Links, Lonodn, 1979, P. 199)

وقد عاد إسرائيل إلى مصر فى أواخر عام ١٩٤٣، بعد وقت طويل من زوال خطر الهجوم الألمانى. وبعد أقل من عامين، اندمجت منظمته مع منظمة «ايسكرا» وقاد غالبية أنصاره إلى الاتحاد فى مايو ١٩٤٧ مع «الحركة المصرية للتحرر الوطنى» (حمتو) لتكوين «الحركة الديمقراطية للتحرر الوطنى» (حدتو) (المعلومات البيوجرافية الأساسية عن مارسيل إسرائيل مستمدة من جيل بيرو: مصدر سبق ذكره، صفحات مختلفة).

والحال أن مارسيل إسرائيل قد اشتهر فى تاريخ الحركة الشيوعية المصرية بأنه من أبرز دعاة تمصير الحركة، خاصة قيادتها. وكان إسرائيل يتجاوب بهذه الدعوة مع إصرار مادويان - خلال اجتماع بيروت - على شعار «التمصير» ويعد هذا الإصرار، بدوره، إمتداداً لدعوة الكومنترن الستالينى إلى «تعريب» قيادة الحزب الشيوعى الفلسطينى والتى سخر منها التروتسكيون الفلسطينيون إذ رأوا أن مجرد إحلال كوادر عربية محل كوادر يهودية - مع إبقاء التوجهات السياسية الانتهازية للحزب - ليس مخرجاً من الأزمة التى يواجهها.

وحتى لو نحينا مجمل سيرة مارسيل إسرائيل السياسية ولم نحتفظ إلا بذلك الجانب الخاص بدعوته التى لاتكل إلى التمصير فسوف نجد أن هذه الدعوة وحدها كافية لاستبعاد أن يكون تروتسكيا: إن الشئ الرئيسى بالنسبة إلى التروتسكيين ليس هو «قومية» قادة الحركة الشيوعية، بل توجهاتها. وقد اعترض كاتب تروتسكى على تفسير إخفاقات الحركة الشيوعية المصرية قبل ١٩٥٢ بالإشارة إلى «لامصرية» قياداتها، وتساءل: «إذا كان الأصل الأجنبى لتلك القيادة هو السبب فى إخفاقاتها، فلماذا لم تتمكن القيادة المصرية مائة بالمائة (بعد تنحية الأجانب والمتمصرين) من أن تتجاوز تلك الإخفاقات، وتفتح الطريق نحو بناء حركة

شيوعية جماهيرية أصيلة؟) (كميل داغر: «مقدمة الترجمة العربية» لكتاب جيل بيرو: مصدر سبق ذكره، ص ١٥). ووضح أن هذا الكاتب يشير إلى مسئولية التوجهات السياسية الستالينية التى سادت الحركة.

أكتفى بهذا رداً على وصف أحمد صادق سعد للعناصر المنشقة على «الرابطة السلمية» بأنها كانت «مجموعة تروتسكية».

على أن موضوع ما يسمى بـ «التروتسكية» المصرية بين عامى ١٩٣٨ و ١٩٤٨ لايتوقف عند هذه النقطة. وإذا كان راءول كوريل وريمون اجيون ومارسيل إسرائيل لم يكونوا تروتسكيين بأى حال من الأحوال، على الرغم من إعجاب اجيون بشخصية تروتسكى، شأنه فى ذلك شأن الكثيرين من شبيبة تجمع «اليسار الثورى»، وهو الإعجاب الذى لم يتحول إلى ارتباط بالحركة السياسية التروتسكية ومنظوراتها المنهاجية، فإن السيرة السياسية لكل من جورج حنين وأنور كامل ولطف الله سليمان تتضمن عداء سافراً للستالينية فى حالة الأول منذ وقت مبكر جداً، وعداء سافراً لها فى حالة الثانى، منذ تأييد الاتحاد السوفييتى قرار تقسيم فلسطين بشكل محدد، وعداء سافراً لها، ممتزجاً بتعاطفات غائمة مع التروتسكية، فى حالة الثالث، خاصة منذ أواخر الحرب العالمية الثانية.

كان جورج حنين (١٩١٤ - ١٩٧٣) [مات جورج حنين فى ١٨ يوليو ١٩٧٣ وليس فى أغسطس ١٩٧٣ كما ذكر رفعت السعيد (انظر، الصحافة اليسارية فى مصر، ١٩٢٥ - ١٩٤٨، ص ٨٥)] واحداً من أبرز المثقفين المصريين المعاصرين. وقد اعتبره أندريه مالرو منذ أواخر عام ١٩٣٩ «النموذج الأكثر ذكاء فى القاهرة» (Grandes Largeurs, No. 2 - 3, Paris, 1981, P. 41). ومن المؤسف أن المؤرخين المصريين لم يقدموا، حتى الآن، دراسة جادة واحدة عن فكره البالغ التعقيد، مكتفين بالحديث عن «تروتسكيته» المزعومة [انظر، د. رفعت السعيد: تاريخ المنظمات اليسارية المصرية، ١٩٤٠ - ١٩٥٠، ص ١٥٩ والدكتور عبد العظيم رمضان: الفكر الثورى فى مصر قبل ثورة ٢٣ يوليو، ص ٥٢. ومن العجيب أن الدكتور رمضان لايشير إشارة واحدة إلى تيارات الفكر اليسارى التى مثلها حنين، وكامل، وسليمان بينما أسهب فى الحديث عن دور تلامذة ديكومب وكوريل وشوارتز، بحيث إن اللوحة التى رسمها تبدو ناقصة، ومن ثم، زائفة]، دون أن يبدو أن أحداً من هؤلاء المؤرخين قد قرأ كتاباً واحداً من كتب جورج حنين والتى وصلت إلى عشرين كتاباً!

والحال أن جورج حنين قد اختار تحديد هويته الفكرية تحديداً سلبياً، إذ اعتبر نفسه «مناهضاً للستالينية ومناهضا للمسيحية» (S. Alexandrian, George Henein, Seghers, Paris 1981, P. 53) وهو لم يزعم قط أنه «تروتسكى» فى أى وقت من الأوقات.

لقد كان جورج حنين، بالدرجة الأولى، شاعراً وناقداً سيريالياً. ويقرر موريس نادو، مؤرخ الحركة السيريالية، أن جورج حنين كان عضواً فى التجمع السيريالى منذ عام ١٩٣٦ (M Nadeau, The History of Surrealism, J. C., London, 1968, P. 340) ولم ينفصل عن هذا التجمع، الملتف حول أندريه بريتون، إلا فى عام ١٩٤٨. والحال أن هذا التجمع، على الرغم من مناهضته القوية للستالينية خلال فترة إنتماء حنين له، لم يكن تروتسكياً بأى حال من الأحوال، رغم استنكاره لمحاكمات موسكو المخزية ورغم تأييده لدفاع تروتسكى عن استقلال الفن عن جميع أشكال الحكم. وتاريخ النزاع بين هذا التجمع والتروتسكيين الفرنسيين تاريخ معروف. وقد رواه أندريه بريتون فى كتابه «أحاديث» وأشار إليه اسحق دويتشر فى الجزء الأخير من ثلاثيته عن تروتسكى.

وطبيعى أن هذا ليس هو المجال المناسب لإعادة استعراض هذا التاريخ. وبوسع القارئ أن يرجع إلى كتاب أندريه بريتون المشار إليه أعلاه. وسوف أكتفى بالإشارة إلى تعارض رؤى جورج حنين فيما يتعلق بمسائل هامة فى فترات مختلفة مع الرؤى التروتسكية.

أواخر عام ١٩٣٦ : اعتبر جورج حنين الحرب العالمية أمرا غير وارد (Grandes Largeurs, Op. Cit., P. 13) وهو تصور يتعارض على طول الخط مع تصور التروتسكيين الذين توقعوا نشوب الحرب العالمية منذ وقت مبكر. ومن المفهوم أن التصور الأول يستتبع سياسات تختلف إلى حد بعيد عن السياسات التى يستتبعها التصور الأخير.

٣٠ ديسمبر ١٩٣٧ : رحب جورج حنين برواية «الأمل» للروائى الفرنسى أندريه مالرو (Ibid., P. 18) والتى تدور أحداثها حول الأيام الأولى للحرب الأهلية الإسبانية. وكان تروتسكى قد سخر من مالرو فى ١٧ ديسمبر ١٩٣٧ متهماً إياه بترويج «حكمة عبودية» عن ضرورة وقف نضال البروليتاريا الطبقى فى إسبانيا (Leon Trotsky, The Spanish Revolution, P. 324).

مارس ١٩٣٩ : رحب جورج حنين بكتاب نيكولا كالاس «مباعث النيران»، وهو دعوة إلى تأسيس يوتوبيا جديدة، الأمر الذى يتعارض مع اتباع سياسة مستمدة من استقراء الاتجاه التاريخى للصراع الطبقى وهو ما حرص التروتسكيون على التقيد به.

صيف ١٩٤٥ : بلور جورج حنين رؤاه اليوتوبية داعياً إلى «سباحة فى تيارات اليوتوبيا الزكية، وتجديد التأمل الطوباوى بكل ما يستوجبه مما هو مثالى ومفرح» محدداً مهمة المثقف الثورى فى «الإعلاء مرة أخرى من شأن الأوهام المستحيلة» (George Henein, Prestige de la Terreur, Ed. Masses, Le Caire, 1945, P. 22) ودعا إلى تشكيل جيريلا (مفرزة أنصار) سياسية، بوصفها «الخيار الوحيد الممكن»، بديلاً عن الحزب اللينينى (Ibid., P. 18). والحال أن هذه الفكرة الأخيرة مستمدة إلى حد ما من الفوضوية وقد تعرضت لانتقاد عنيف من جانب تروتسكى منذ مستهل العشرينيات.

٢١ يونيو ١٩٤٧ : شارك جورج حنين فى إصدار بيان التجمع السيريالى الذى حمل عنوان: «قطيعة مبدئية» والذى خلط الماركسية بالستالينية وقدم تأييداً معنوياً للفوضويين وهو ما يتعارض مع اعتبار التروتسكيين الستالينية خيانة للماركسية ومع شجبهم للفوضوية.

١٠ يناير ١٩٤٨ : انتقد جورج حنين الأممية الرابعة والتروتسكية الأرثوذكسية وجدد الإعراب عن تعاطفه مع الفوضويين.

١٦ أغسطس ١٩٤٩ : كتب جورج حنين إلى كالاس ينتقد عدم اجتراء السيرياليين على انتقاد منهج الماركسية (سمير غريب: السيريالية فى مصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٦، ص ١٩٤).

وعلى الرغم من كل ذلك، فقد زعم عبد القادر ياسين أن جورج حنين «أصبح واحداً من أبرز قادة سكرتارية باريس، إحدى انشقاقات الأممية الرابعة» (شئون فلسطينية، آيار ١٩٧٥)، دون سند أو دليل، وعلى الرغم من أنه ليس بين انشقاقات الأممية الرابعة انشقاق بهذا الاسم. وقد نفت بولا العلايلى هذا الزعم مشيرة إلى أن زوجها مال أكثر إلى الفوضوية (سمير غريب: مصدر سبق ذكره، ص ٥٤). وقد تبنى رفعت السعيد زعم عبد القادر ياسين دون تمحيص (د. رفعت السعيد: تاريخ المنظمات اليسارية المصرية، ص ١٥٩).

والحال أن كل ما قيل أعلاه لايقلل بحال من أهمية الدور الذى لعبه جورج حنين فى مسيرة الانتلجنتسيا الإبداعية المصرية، ولا من أهمية دوره فى تشجيع تيارات مناهضة للستالينية الانتهازية فى صفوف اليسار المصرى.

لقد شارك فى حشد أبرز ممثلى الإنتلجنتسيا الإبداعية المصرية وتوحيد حركتهم من خلال تأسيس جماعة «الفن والحرية» فى يناير ١٩٣٩. ولم تكن هذه الجماعة مجرد «امتداد متمصر» لجماعة المحاولين مثلما زعم الدكتور رفعت السعيد (مصدر سبق ذكره، ص

١٥٤) بل «كانت تعبيراً عن التقاء صفوة من الشباب نمت من خلال انتماءاتها التنظيمية أو التجمعية إلى جانب تربيتها الخاصة وخبرتها الذاتية المتميزة. فمن جماعة «المحاولين» جورج حنين ومن معه. ومن جماعة «الدعاية الفنية» يوسف العفيفى ورمسيس يونان ومع العفيفى مريديه. ومن «المنبوذين» – نسبة إلى «الكتاب المنبوذ» – أنور كامل وكامل التلمسانى وفؤاد كامل وأحمد رشدى» (أنور كامل: لكنهم صنعوا المستقبل، مقال فى مجلة «صباح الخير» ١٨/ ٩/ ١٩٨٦).

وشارك فى إصدار ودعم مجلة «التطور» التى صدرت فى يناير ١٩٤٠. وقد تعرضت هذه المجلة إلى ضغوط قوية من جانب السراى والأزهر والسفارة البريطانية أدت إلى تدخل الرقابة ضدها بشكل متواصل مما قاد إلى احتجاب المجلة عن الصدور بعد العدد السابع – وليس بعد صدور العدد الخامس كما زعم رفعت السعيد – وليس بسبب ضغوط مالية زعم رفعت السعيد أن جورج حنين قد مارسها على هيئة تحرير المجلة (انظر، رفعت السعيد، مصدر سبق ذكره، ص ص ٢٠٤ – ٢٠٥. وانظر، رد أنور كامل على هذه المزاعم فى: أنور كامل: لكنهم صنعوا المستقبل، الأصل الكامل لمقال أنور كامل المنشور فى مجلة «صباح الخير» وهو عبارة عن ملزمة مكتوبة على الآلة الكاتبة تحمل تاريخ ٢٠ / ٨/ ١٩٨٧، ص ص ١١ – ١٢).

وكان جورج حنين مصدر الهام لكثيرين من متمردى جيله الذين بث روح التمرد على الواقع فى وجداناتهم على نحو ما يظهر من كتاباتهم المنشورة فى مجلة «المجلة الجديدة»، وكراساتهم، وأعمالهم التشكيلية.

ومثلما استنكر حنين مختلف أشكال الاضطهاد التى تعرض لها الاشتراكيون فى أوقات مختلفة فى بلدان أوروبية مختلفة، استنكر حملات الأجهزة القمعية المصرية على مختلف ممثلى اليسار المصرى خلال الحرب العالمية الثانية وبعد انتهاء الحرب على حد سواء. ولعب دوراً بارزاً فى خلق حملة تضامنية قوية مع أولئك المناضلين على اختلاف ميولهم السياسية، دون تمييز بين الستالينيين والمناهضين للستالينية.

ويعد أنور كامل (ولد عام ١٩١٣) واحدا من أولئك المتمردين الذين استلهموا – إلى حد ما – مثال جورج حنين دون أن يكونوا قد سلكوا الدروب المعقدة التى سلكها الأخير. وقد وصف أنور كامل، هو الآخر، دون براهين حقيقية، بأنه «تروتسكى» رغم أن سيرته الفكرية والسياسية لاتشير إلى ذلك ورغم أنه هو نفسه قد نفى هذا الوصف الذى وصفه به

كثيرون (انظر، A. Kamel, Interviewed by S. Botman For a Doctoral Disserta-
.(tion, Harvard

استهل أنور كامل نشاطاته العامة فى أوائل الثلاثينيات حيث ارتبط منذ عام ١٩٣٢ وحتى أواخر عام ١٩٣٨ بتجمع من المثقفين كان من أبرز وجوهه أحمد كامل مرسى. وفي صيف عام ١٩٣٦ أصدر كتابه الأول الذى حمل عنوان «الكتاب المنبوذ»، وهو عبارة عن عشرة حوارات بين رجل وامرأة. وقد دعا الكتاب إلى إنهاء الفصل بين الجنسين وإلى تحقيق الإشباع الجنسى والحرية الجنسية، علاوة على ماتضمنه من سخرية من المطلقات الميتافيزيقية. وقد قرر مجلس الوزراء مصادرة الكتاب وحظر تداوله بعد أقل من أسبوعين من صدوره.

وشارك أنور كامل فى تأسيس جماعة «الفن والحرية» فى مستهل عام ١٩٣٩. وقد نفى أنور كامل عن هذه الجماعة صفة «التروتسكية» فى حديثه مع س. بوتمان.

وفى يناير ١٩٤٠، صدر العدد الأول من مجلة «التطور» - لسان حال جماعة «الفن والحرية» - حيث اختير أنور كامل رئيساً لتحريرها. وقد جعلت شعارها «التطور الدائم والتغير المستمر» مما دفع عبد القادر ياسين إلى اعتبارها مجلة تروتسكية. وقد سألت س. بوتمان أنور كامل عما إذا كان قد تأثر بتروتسكى عندما رفع هذا الشعار فأجاب بالنفى: «.. منذ بداية حياتى وأنا أريد تغيير كل شئ حولى. وفى ذلك الوقت لم أكن قد قرأت تروتسكى، أو حتى ماركس» (Ibid).

وعندما أسس مارسيل إسرائيل منظمة «تحرير الشعب» فى صيف ١٩٤٠، كان أنور كامل من بين الأعضاء المؤسسين للمنظمة وقد اختير - بالاجماع - أميناً عاماً لها فى اجتماعها التأسيسى. ثم انقطعت صلته بهذه المنظمة بعد اعتقاله هو وأعضائها فى عام ١٩٤١. واتجه إلى تأسيس جماعة «الخبز والحرية» فى العام نفسه بعد خروجه من السجن - وقد استمرت هذه الجماعة قائمة بشكل أو بآخر حتى حملة صدقى باشا فى ١١ يوليو ١٩٤٦ ضد اليسار المصرى.

وخلال هذه الفترة أصدر أنور كامل ثلاث كراسات تعبر عن مواقف الجماعة التى نفى فى حديثه مع س. بوتمان أنها كانت تروتسكية:

١- «مشاكل العمال فى مصر» (١٩٤١). وقد تناول أنور كامل فى هذا الكراس عدداً من مسائل الحركة العمالية المطلبية.

٢- «الصهيونية» (١٩٤٤). وهو عبارة عن تلخيص لكتاب «اللاسامية والمسألة اليهودية» الذى أصدره فى لندن فى عام ١٩٤٣ الستالينى البريطانى المعروف ريناب (وهو بدوره ليس مساهمة أصيلة، فهو مستمد من مقالات كاوتسكى عن المسألة اليهودية) ورسالة الاشتراكيين الفلسطينيين (التروتسكيين) المفتوحة إلى أعضاء حزب العمال البريطانى (١٩٤٤). وقد حصل أنور كامل على نسخة من كتاب ريناب من جورج حنين وعلى نسخة من رسالة الاشتراكيين الفلسطينيين من لطف الله سليمان. ولم يكن جورج حنين ولطف الله سليمان عضوين فى جماعة «الخبز والحرية» وإن كانا قد آزرا مجهوداتها.

٣- «لاطبقات» (١٩٤٥). وهو كراس ينتقد الإصلاحية ويدعو إلى ثورة اشتراكية من أجل إلغاء المجتمع الطبقى فى مصر. وقد اعتقل أنور كامل بسبب هذا الكراس وحبس لمدة شهرين.

لقد أشار عبد القادر ياسين إلى كراس «الصهيونية» (انظر، عبد القادر ياسين: القضية الفلسطينية فى فكر اليسار المصرى، دار ابن خلدون، بيروت، ١٩٨١ ص ص ١٩، ١١١). والحال أن الدكتور عبد العظيم رمضان قد اختار تجاهله. وتجاهل رفعت السعيد كل كتب أنور كامل باستثناء كتاب «افيون الشعب» (١٩٤٨).

وعندما صدر هذا الكتاب الأخير، تعرض أنور كامل لحملة افتراءات من الستالينيين المصريين ومازال يتعرض لها حيث اتهمه رفعت السعيد بإصدار كتابه «بالتعاون التام مع جهات الأمن» (رفعت السعيد: مصدر سبق ذكره، ص ١٥٩) ولم يهتم رفعت السعيد بتقديم دليل واحد على هذا الاتهام الخطير، مما يدل، بحد ذاته، على تعمد الافتراء.

وقد كتب أنور كامل هذا الكتاب بعد أن توقف عن النشاط السياسى المنظم وبعد أن وافق الاتحاد السوفييتى على قرار التقسيم واعترف بالدولة الصهيونية وبعد أن تجلت له خيانة الحزب الشيوعى الستالينى الفرنسى للثورة فى الهند الصينية والجزائر وخيانة الحزب الستالينى الهولندى للكفاح الوطنى التحريرى فى أندونيسيا، وقد شجب جميع هذه الخيانات وانتقد التسلط الستالينى على الطبقة العاملة السوفييتية وتآمر ستالين ضد قادة الحزب البلشفى وثورة أكتوبر.

ومن جانب آخر، شجب أنور كامل الاستعمار البريطانى والإمبريالية الأمريكية والرجعية المصرية.

ولم يتورط أنور كامل فى تبنى مواقف الأيديولوجيين الإمبرياليين خلال فترة الحرب الباردة ... ودعا لسياسة مستقلة عن كل من واشنطون وموسكو

وخلافا لإدعاء رفعت السعيد أن كتاب أنور كامل قد صدر بـ «تعاون تام مع جهات الأمن» فإن هذا الكتاب قد تعرض لمقص الرقيب فى مواضع عديدة.

وقد استند أنور كامل فى هذا الكتاب إلى كراس كان قد أصدره ج. مونيس فى أوائل عام ١٩٤٧ فى باريس تحت عنوان: «الثوريون تجاه روسيا والستالينية العالمية» وكان قد حصل على نسخة من هذا الكتاب من جورج حنين.

والحال أن كراس ج. مونيس قد تعرض غداة صدوره لانتقاد حاد من جانب بيير فرانك، أحد قادة الأممية الرابعة البارزين وأحد رفاق تروتسكى المقربين منذ أوائل الثلاثينيات (انظر: P. Frank, Le Stalinisme, F. M., Paris, 1977, PP. 189 - 192)، حيث ركز، بشكل خاص على نقد مفهوم ج. مونيس عن البيروقراطية السوفييتية، وهو عين مفهوم أنور كامل، والذى لايرتبط من قريب أو بعيد بالمفهوم التروتسكى.

لقد اعتبر أنور كامل البيروقراطية السوفييتية «طبقة حاكمة جديدة» (أنور كامل: أفيون الشعب، مطبعة الرسالة، القاهرة، ديسمبر ١٩٤٨، ص ٣٦)، بينما اعتبر التروتسكيون هذه البيروقراطية ورماً خبيثاً على جسم ديكتاتورية البروليتاريا، شريحة لاتمثل طبقة اجتماعية مستغلة ومستقلة. وقد ساعدت ظروف تخلف روسيا وعزلة الثورة الروسية هذه الشريحة على لعب دور شرطى يستأثر بامتيازات استهلاكية وهو يضبط تحرك طوابير لامفر من أن تتشكل فى ظروف الندرة النسبية دون أن يتمكن هذا الشرطى من تغيير الطبيعة العمالية للدولة المنبثقة عن ثورة أكتوبر وإن تمكن من تشويهها. (انظر، تحليل تروتسكى للبيروقراطية السوفييتية فى الجزء الثانى من مختاراته الصادر تحت عنوان: Sowjet Gesellschaft und Stalinistische Diktatur, E. V., Kôln, 1974).

ومؤخراً جداً، بدأ تحليل تروتسكى للبيروقراطية السوفييتية يجد صداه بين صفوف السوسيولوجيين السوفييت (انظر، صحيفة «أنباء موسكو»، ١ مارس ١٩٨٧، ص ١٣، حديث مع الأكاديمية تاتيانيا زاسلافسكايا، رئيسة الرابطة السوسيولوجية السوفييتية).

والحال أن مفهوم أنور كامل عن البيروقراطية السوفييتية بوصفها «طبقة حاكمة جديدة» إذ ينفى عنه صفة التروتسكية، لايجره – اوتوماتيكيا – إلى معسكر الإمبريالية، مع ذلك هذا لم يحدث مع سمير أمين أو بول سويزى، أو تونى كليف وهو لم يحدث مع أنور كامل

وعلى الرغم من اختلاف مواقف أنور كامل مع مواقف التروتسكيين فيما يتعلق بعدد من المسائل المهمة - من بينها، بطبيعة الحال، مسألة طبيعة البيروقراطية السوفييتية - فإن من الواضح تماماً أن شجبه لخيانة عدد من الأحزاب الستالينية للحركات القومية التحررية ولتأييد البيروقراطية الستالينية قرار تقسيم فلسطين ولاعترافها بالدولة الصهيونية ودعوته إلى الثورة الاشتراكية سبيلاً لحل معضلات التخلف وللقضاء على الاستغلال الطبقى من الأمور التى من الطبيعى أن تخلق التقاء بينه وبين مختلف التيارات اليسارية الثورية، ومن بينها التيار التروتسكى، دون خلط للأعلام مثلما يفعل المؤرخون الستالينيون!

وقد اشترك لطف الله سليمان مع أنور كامل فى عام ١٩٤٧ فى تحرير كراس صدر فى مايو ١٩٤٧ تحت عنوان «اخرجوا من السودان». وقد دعا هذا الكراس إلى جلاء البريطانيين دون قيد أو شرط عن مصر والسودان وإلى الاعتراف بحق الشعب السودانى فى تقرير مصيره بنفسه بعد جلاء البريطانيين عن السودان (انظر، أنور كامل، لطف الله سليمان: اخرجوا من السودان، مطبوعات الدهماء، القاهرة، مايو ١٩٤٧، ص ٣).

وقد سبقت الإشارة إلى أن لطف الله سليمان لم يكن عضواً فى جماعة «الخبز والحرية» وهو، علاوة على ذلك، لم يكن عضواً فى جماعة «الفن والحرية» إلا أنه قد آزر كلا من الجماعتين.

وقد أسس لطف الله سليمان حوالى عام ١٩٤٢ (بالاشتراك، على ما يبدو، مع جورج حنين) داراً للنشر جعلت مهمتها نشر الأدبيات الثورية. وعندما تولى رمسيس يونان (١٩١٣ - ١٩٦٦) (لاتختلف سيرة رمسيس يونان الفكرية - السياسية كثيراً عن سيرة جورج حنين) رئاسة تحرير مجلة «المجلة الجديدة» اعتباراً من أبريل ١٩٤٣، كان لطف الله سليمان مديراً لتحرير المجلة. وقد انحازت المجلة إلى صف الاتحاد السوفييتى دون قيد أو شرط فى الحرب ضد ألمانيا الهتلرية وأقامت صلات مع مجلات وصحف الجماعات الستالينية فى لبنان والعراق وأيدت حزب الوفد (هذا الموقف الأخير - بالذات - يشهد على أنها لم تكن مجلة تروتسكية). وكان من كتابها رمسيس يونان، وجورج حنين، وأنور كامل (لم ينشر الأخير فيها غير مقال واحد). وقد تحولت إلى مجلة مناهضة للستالينية بعد تصريح لورد فانيستارت، وعندئذ قطعت مجلات وصحف الجماعات الستالينية فى لبنان والعراق صلاتها بها. ثم عطلت المجلة بموجب أمر عسكرى اعتباراً من العدد ٤٤.

وقد التف عدد من السيرياليين والمثقفين اليساريين المصريين - المستقلين عن التيار

الستالينى – حول لطف الله سليمان منذ عام ١٩٤٥، وكان سليمان قد طرح فكرة إنشاء «حزب شيوعى ثورى» دون أن تتحول الفكرة إلى واقع تنظيمى فى أى وقت من الأوقات.

وقد كتب لطف الله سليمان منشوراً محدود التوزيع يدعو إلى تكوين حزب كهذا تحت عنوان: «نحو حزب شيوعى ثورى». واتهم سليمان كلا من محمد مندور وأنور كامل فى هذا المخطوط بـ «الانتهازية» لتعاونهما مع صحيفة «الوفد المصرى». وكان أنور كامل قد رتب لقاء بين مصطفى موسى وأمين الكاشف (من شبيبة اليسار الوفدى) وجورج حنين ولطف الله سليمان لتدارس إمكانيات العمل المشترك. ويذكر أنور كامل فى حديثه مع س. بوتمان أن جورج حنين لم يبد اهتماماً بالموضوع بعد المناقشة وأن لطف الله سليمان أتخذ موقفا أكثر تشدداً ضد العمل المشترك مع شبيبة اليسار الوفدى. وقد ضبط مخطوط لطف الله سليمان مع أنور كامل خلال حملة صدقى فى يوليو ١٩٤٦. وكان لطف الله سليمان آخر مناضل يخرج من السجن.

والحال أن س. بوتمان قد ذكرت فى عام ١٩٨٠ أن لطف الله سليمان قال إن حركة تروتسكية حقيقة قد بدأت فى عام ١٩٤٥، ذات هياكل تنظيمية حقيقية. وقد نفى ذلك أنور كامل (الذى ايد دعوة لطف الله سليمان إلى إنشاء حزب شيوعى ثورى والذى اعتبر الانتقاد الذى وجهه سليمان إليه نوعاً من «الانتقاد الذاتى» والذى اشترك مع سليمان فى عام ١٩٤٧ فى تحرير كراس «اخرجوا من السودان» (انظر، A. Kamel, Op. Cit.). وعلاوة على ذلك، فقد عاد لطف الله سليمان فى عام ١٩٨٤ ليعلن أن المجموعة التى التفت حوله كانت «من دون بنى تنظيمية حقيقية» (جيل بيرو: مصدر سبق ذكره، ص ٢٨٣).

ويبدو أن محاولة لطف الله سليمان كان لامفر لها من أن تفشل. فهو قد أراد بناء «حزب شيوعى ثورى» من خلال التعاون مع جورج حنين ورمسيس يونان (السيرياليين الميالين إلى الفوضوية) وأنور كامل (الماركسى المستقل المستعد للتعاون مع صحف الوفد). ويدل ذلك، وحده، على أن سليمان لم يكن يملك رؤية تروتسكية حقيقية فيما يتعلق بأبسط مقدمات بناء «حزب شيوعى ثورى».

على أن مما يذكر لهذا الفصيل – على اختلاف عناصره – أنه قد طرح شعارات ثورية فيما يتعلق بضرورة استناد الحركة القومية التحررية إلى قوة الطبقة العاملة وصهر النضالات القومية – التحررية الثورية فى نضال الطبقة العاملة الطبقى وأنه قد شجب قرار التقسيم ودعا إلى حرب تحريرية ضد الدولة الصهيونية.

والحال أن مواقف الحركة الستالينية من المسألة الفلسطينية خلال ١٩٤٧ - ١٩٤٨ قد أدت إلى تهميش عام لمجمل قوى اليسار في الشرق العربي، الأمر الذى مهد السبيل أمام الديماجوجية القومية البورجوازية الصغيرة. وقد استمر هذا الوضع حتى حرب يونيو ١٩٦٧

استنتاجات:

تكشف الدراسة التاريخية الموضوعية عن عدد من الحقائق:

١ - إن تجمع «الفن والحرية» الذى كان قائده، جورج حنين، وأغلب المنتمين إليه والمؤازرين له، مناهضين للستالينية، هو أول تجمع واسع للمثقفين اليساريين المصريين فى هذا القرن.

٢ - إن هذا التجمع يرمز إلى ظاهرة ذات مغزى تاريخي: ظاهرة حلول المثقف الثورى محل المثقف الليبرالى.

٣ - إن التيار المناهض للستالينية تيار أساسى من تيارات الحركة اليسارية المصرية بين عامى ١٩٣٨ - ١٩٤٨.

٤ - إن وجود هذا التيار طوال تلك الفترة دليل على فشل الستالينية فى فرض هيمنتها المطلقة على توجهات الإنتلجنتسيا اليسارية المصرية.

٥ - إن هذا التيار، خلافاً للتيار الستالينى المتحجر، كان منفتحاً على مختلف تيارات الفكر الثورى.

٦ - إن هذا التيار كان التيار الوحيد - داخل الحركة اليسارية المصرية - الذى دعا إلى الثورة الاشتراكية سبيلاً إلى القضاء على تخلف المجتمع المصرى.

٧ - إن المؤرخين الستالينيين وزملاءهم القوميين قد زوروا تاريخ التيار المناهض للستالينية لاعتبارات تتصل بالماضى وبالحاضر على حد سواء.

٨ - إن تاريخ هذا التيار مايزال بحاجة إلى دراسة موضوعية مستفيضة، تستند إلى فهم عميق لمختلف المنطلقات التى شكلت ملامح هذا التيار. أما الاكتفاء بالحديث عن «تروتسكية» هذا التيار المزعومة فليس من شأنه أن يساعدنا كثيراً - كما رأينا - خاصة وأن كل من استخدموا هذا المصطلح من المؤرخين لم يوضحوا ما الذى يقصدونه به.

روتشتاين ولينين والمسألة المصرية

يعجب المرء أشد العجب عندما يقرأ عدداً من المؤلفات التى صدرت حلال السنوات الأخيرة لباحثين مصريين عن تاريخ الحركة الاجتماعية - السياسية الحديثة والمعاصرة فى مصر.

ومصدر هذا العجب هو ذلك الافتقار الملحوظ الذى تشكو منه هذه المؤلفات إلى جانب كبير من المادة الواقعية التاريخية المعروفة، من جهة، وإلى القدرة على التناول العلمى المنسجم والدقيق لموضوعاتها، من جهة أخرى.

ويكفينى الآن أن أشير تأكيداً لهذه الحقيقة، إلى مؤلفات الدكتور رفعت السعيد. فإذا ما توقفنا، مثلاً، أمام الجزء الأول من «تاريخ الحركة الاشتراكية فى مصر»، الذى هو فى الأصل رسالة دكتوراه (ولا أود الآن الحديث عن النسخة الانجليزية المقدمة لنيل الدرجة العلمية)، فسوف نجد أنه يفتقر افتقاراً شنيعاً إلى جانب كبير من المادة الواقعية التاريخية المعروفة، ودليلنا على ذلك أن الكاتب قد أغفل تماماً استخدام كتابات على درجة كبيرة من الخطورة لعدد من القادة الشيوعيين مثل انطون مارون وروبرت جولدنبرج، حفل بها عدد من الجرائد والمجلات المصرية التى كانت تصدر باللغة الفرنسية فى مصر فى الربع الأول من هذا القرن، إلى جانب أنه لم يستخدم المادة الموجودة فى كتاب أ. شامى: (الحزب الشيوعى المصرى)، الصادر باللغة الروسية فى موسكو سنة ١٩٢٩.

والواقع أن المادة الواقعية التاريخية التى تشتمل عليها هذه المصادر من شأنها، لو استخدمت، أن تكشف عن جوانب أساسية فى تاريخ الحركة الاشتراكية فى مصر. وطبيعى أن اغفال هذه المادة لابد وأن ينعكس انعكاساً سلبيا على التحليل العلمى.

وقد تسبب اغفال رفعت السعيد لهذه المادة فى توريطه توريطاً شديداً. وعلى سبيل المثال، فإن ما ينشره على أنه نص رسالة جوزيف روزنتال إلى الجرائد المصرية، ليس غير جزء فقط من الرسالة، والتى نشر نصها الكامل باللغة الفرنسية فى صحيفة (لابورص اجيبسيان) التى كانت تصدر فى الاسكندرية.

كما تفتقر دراسة رفعت السعيد إلى التناول العلمى المنسجم والدقيق. والمسئول عن ذلك إلى حد بعيد هو رفعت السعيد نفسه، الذى لايعرف كيف يميز الماركسية من الإصلاحية، ويكفى دليلاً على ذلك اعتباره مصطفى حسنين المنصورى ماركسياً، فى حين

أن كتابات الرجل نفسها تثبت بما لايدع مجالاً للشك أنه كان من اتباع هنرى جورج الذى انتقده ماركس وانجلز ولينين انتقاداً شديداً، إلى جانب أن عدداً من المستشرقين المرموقين قد بينوا افتراق (اشتراكية) المنصورى الواضح عن الماركسية، واذكر من بين هؤلاء المستشرقين، المستشرق السوفييتى زلمان ايساكوفيتش ليفين، والمستشرق الألمانى الشرقى جيرهارد هيوب.

على أية حال، أنا لا أنوى اخضاع كتابات رفعت السعيد التاريخية لنقد شامل فى هدا المقال الموجز. فكل ما فى الأمر أننى أردت أن أسوق مثالاً لعدد من الدراسات التاريخية المعيبة بمناسبة المقال الذى نشره الدكتور سيد عشماوى فى الجزء الأول من مختارات «الثقافة الوطنية».

وأنا لن أعلق على كل ما كتبه الدكتور عشماوى فى مقاله، بل سأكتفى بتناول أمرين: أولهما ماذكره عن ف. ا. روتشتاين (وليس روذستين كما اعتاد مترجمونا ومؤرخونا الكتابة) وثانيهما: ما ذكره عن عرض لينين مساعدة ثورة ١٩١٩.

بالنسبة إلى الأمر الأول، أجد أن ما أورده الدكتور عن روتشتاين غير كاف، من ناحية وغير دقيق فى جانب منه، من ناحية أخرى. غير كافٍ، لأنه يغفل الإشارة إلى جوانب من نشاط روتشتاين لها صلتها الوثيقة بموقف البلاشفة – اللينينيين من المسألة المصرية، ومن الحركة القومية – التحررية المصرية، ومن مختلف طبقات وفئات المجتمع المصرى غداة ثورة ١٩١٩.

ومعظم ما أورده الدكتور عن روتشتاين مأخوذ عن مقدمة الترجمة العربية الأولى لكتاب (خراب مصر)، الذى كان قد نشره روتشتاين باللغة الانجليزية فى لندن فى سنة ١٩١٠. ومن هذه الزاوية، فإن الدكتور عشماوى قد كرر مافعله من قبله عشرات المؤرخين والكتاب المصريين دون أن يورد جديداً.

وما أود أن ألفت الانتباه إليه وأنا أتحدث عن جوانب من نشاط روتشتاين يغفلها مؤرخونا وكتابنا هو ذلك الجهد العلمى والدعائى الذى قام به روتشتاين بعد عودته إلى روسيا سنة ١٩٢٠، حيث واصل متابعته للمسألة المصرية وأثمرت هذه المتابعة إضافة فصول جديدة إلى كتاب (خراب مصر) والذى صدرت طبعته الروسية الأولى فى موسكو سنة ١٩٢٥ تحت عنوان «انتزاع واستعباد مصر»، واصدار كتاب جديد فى موسكو فى السنة نفسها تحت عنوان (الانجليز فى مصر) ومن المحزن أن معظم مؤرخينا لايعرفون شيئاً عن هذه الفصول الجديدة،

التى يواصل فيها روتشتاين تحليله للمسألة المصرية حتى منتصف العشرينيات ولا عن الكتاب الأخير.

ومن ناحية أخرى، فإننى اعتبر ما أورده الدكتور عن روتشتاين غير دقيق فى جانب منه. فليس صحيحاً، مثلا، أن روتشتاين قد هاجر إلى لندن سنة ١٨٩٣، بل سنة ١٨٩٠، كما أنه لم يكن سكرتيراً خاصاً للينين، إذ عمل الرجل غداة عودته إلى روسيا، تحديداً منذ سنة ١٩٢١ وحتى سنة ١٩٣٠، فى السلك الديبلوماسى السوفييتى. وعلى أى حال، فإن بالإمكان الرجوع إلى دراسة ن. أ. بروفييف عن روتشتاين، المنشورة فى موسكو سنة ١٩٦٠، بعد سبع سنوات من وفاة روتشتاين، فى مجموعة (الامبريالية وكفاح الطبقة العاملة. إحياء لذكرى الأكاديمى ف. أ. روتشتاين) إذا كنا نريد الوقوف على المعلومات الأساسية والدقيقة عن الرجل.

أما بالنسبة إلى الأمر الثانى والخاص بما ذكره الدكتور عشماوى عن موقف البلاشفة - اللينينيين من ثورة ١٩١٩، فإن من الواضح أن لينين وتروتسكى والقادة البلاشفة الآخرين قد أيدوا الحركات التحررية للأمم والشعوب المضطهدة ضد مختلف القوى الامبريالية ومن أجل حق تقرير المصير. وبهذا المعنى، يكون صحيحاً تماماً أن يقال أن لينين قد أيد ثورة ١٩١٩ وانتفاضة ١٩٢١.

لكن ما نختلف مع الدكتور عشماوى فيه هو ما يذهب إليه من أن لينين قد (عرض على الوفد المساعدة وتدعيم نضال حركته).

فأولاً: لاتوجد وثيقة لينينية واحدة بين أعمال لينين الكاملة التى اكتمل صدور طبعتها الروسية الخامسة منذ سنوات فى ٥٥ مجلداً، ولا فى أجزاء (المجموعة اللينينية) التى صدرت حتى الآن منذ اكتمال نشر الطبعة الروسية الخامسة لأعمال لينين الكاملة، وهى أجزاء مخصصة لنشر كتابات لينين التى لم يسبق لها النشر، تشهد على أن لينين قد قدم مثل هذا العرض.

وثانياً: لاتوجد فى كتب المذكرات الروسية، ولا فى الكتابات التاريخية السوفييتية عن لينين، أو عن الكومنترن، أو عن الحركات القومية - التحررية فى الشرق، إشارة واحدة إلى أن لينين قد قدم مثل هذا العرض.

وثالثاً: فقد ذكر لى المستشرق السوفييتى شرباتوف سنة ١٩٦٩ أنه لاتوجد أى وثائق لينينية تفيد أن لينين قد قدم عرضا كهذا. وقال لى بالحرف الواحد (إذا كان لدى المؤرخين

المصريين وثائق تفيد ذلك، فلماذا لايقومون باعلانها؟).

ورابعاً: فإن الدكتور عشماوى يناقض نفسه، فهو يقول أن لينين قد قدم هذا العرض سنة ١٩١٩، ثم يعود بعد ذلك إلى الاستشهاد بأقوال على إسماعيل الذى يقول أن هذا العرض قد وصل إلى سعد زغلول فى جبل طارق، أى سنة ١٩٢٢.

وخامساً: وهذا هو الأهم، فإننا نستبعد تماماً أن يكون لينين قد عرض ... على الوفد مساعدة وتدعيم نضال حركته، وذلك لسبب جد بسيط: ألا وهو أن لينين لم يكن على استعداد لتدعيم نضال حركة حزب كحزب الوفد.

إن هدف اقتراب الشيوعيين الثوريين من بروليتاريا وشعوب الشرق، لم يكن من الممكن فى تصور لينين، التوصل إليه عن طريق تدعيم نضال حركة القوميين الليبراليين فى الشرق. وقد حدد جوليان، مقرر لجنة المسألة الشرقية، أمام المؤتمر العالمى الثالث للكومنترن سنة ١٩٢١، قبل أشهر قليلة فقط من نفى سعد زغلول إلى سيشل ثم إلى جبل طارق، موقف الكومنترن من هؤلاء القوميين، حيث أعلن أن الشيوعيين لن يتمكنوا من الاقتراب من شعوب وبروليتاريا الشرق إلا إذا حققوا القطيعة مع الطبقات القوموية. وقد دعا إلى كشف القوميين وإلى البدء فى اللحظة اللازمة بتحقيق قيادة شيوعية للحركة التحررية فى تزاحم مع القادة القوميين وضد هؤلاء القادة. (انظر: المؤتمر العالمى الثالث للأممية الشيوعية، بتروجراد، ١٩٢٢، صفحة ٤٧٩). والمعروف أن لينين، الذى شارك فى أعمال المؤتمر الثالث للكومنترن، لم يعترض على تقرير جوليان. ومن ناحية أخرى، فإننا نتساءل: كيف يمكن للكومنترن الذى أجاز تقريراً كهذا أن يرسل مندوبه إلى جبل طارق لبحث دعم حركة الوفد؟.

بقيت نقطة أخيرة: ليس هناك ما يدعو إلى استسهال التأمين على كل كلمة يقولها مارسيل إسرائيل، مثلما يفعل الدكتور رفعت السعيد. فليس صحيحاً، مثلاً، أن لينين كان يرسل كل رسائله إلى الحزب البلشفى عن طريق مصر (!)، لأن طرق اتصال لينين مع الحزب كانت عديدة، بل إن طريق الإسكندرية كان واحداً من طرق عديدة لوصول الايسكرا إلى روسيا. وهذه الطرق العديدة مبينة على الخرائط المنشورة فى الكتب الروسية عن جريدة الايسكرا وعن تاريخ الحزب البلشفى.

مصطفى حسنين المنصورى (١٨٩٠ -؟)

وافق عام ١٩٩٠ الذكرى المئوية لميلاد داعيه الاصلاح الاجتماعى - السياسى المصرى مصطفى حسين المنصورى

وجاءت هذه الذكرى لتثار من جديد مسألة مكانة عمل المنصورى فى التاريخ الحديث لدعوات الاصلاح الاجتماعى – السياسى فى مصر والتى كان قد أثارها المستشرق الروسى زلمان إ. ليفين فى عام ١٩٦٨ على صفحات مجلة «شعوب آسيا وافريقيا» الاستشراقية الروسية، والمستشرق الألمانى هـ. فونك فى عام ١٩٦٩ على صفحات نشرة معهد الدراسات الاستشراقية فى برلين، والمستشرق الألمانى جيرهارد هيوب فى عام ١٩٧٣ فى مساهمته المنشورة فى موسكو، هذا إذا اقتصرنا على الإشارة إلى أصحاب الإسهامات الجادة والتى يبدو أن أغلب الباحثين المصريين فى الموضوع لم يسمعوا بها، حيث لاترد فى كتاباتهم إشارة واحدة إلى هذه الإسهامات

سيرة المنصورى:

ولد مصطفى حسنين المنصورى فى القاهرة فى عام ١٨٩٠ لأسرة ميسورة، حيث كان والده ضابطاً فى الجيش المصرى ومالكاً عقارياً يمتلك سبع دور سكنية واثنين وسبعين فداناً

وقد تسنى للمنصورى استكمال تعليمه العلمانى الحديث رغم اضطراب الأحوال المالية لأسرته بعد تبديد عائلها لثروته ثم انتحاره، وحصل المنصورى فى عام ١٩١١ على شهادة الليسانس فى التربية والآداب. وكان على درايه جيدة بالانجليزية والفرنسيه

وعداة تخرجه من الجامعة الأهلية انتظم المنصورى فى السلك التربوى - التعليمى حيث عمل مدرساً فى الدقهلية ثم ناظراً لمدرسة طوخ الاعدادية ثم مديراً للتعليم فى الفيوم وقد جرى فصله من هذا المنصب الأخير فى عام ١٩٣٠، نتيجة لوشايات محليه ضده. فاستقر فى «عزبة المدير» فى الشواشنا بالفيوم، وهى العزبة التى حملت هذا الاسم نسبة إلى الوظيفة التى كان يتقلدها حتى ذلك الحين.

وباستثناء المشاركة فى عدد من الندوات الثقافية واجتماع شبه سياسى عرضى بعد الحرب العالمية الأولى، لم يرتبط المنصورى بأية نشاطات سياسية حزبية، وكان بعيداً، بوجه عام، عن الحركة التحررية - القومية المصرية المناوئة للاحتلال الأجنبى وأكثر قرباً إلى اتجاه أحمد لطفى السيد (١٨٧٢ - ١٩٦٣) المعتدل الداعى إلى التركيز على الاصلاح الداخلى فى ظل الاحتلال البريطانى

فى عام ١٩١٥، نشر المنصورى كتابه «تاريخ المذاهب الاشتراكية» الذى صدر بعد عامين من صدور كتيب سلامه موسى (١٨٨٧ - ١٩٥٨) «الاشتراكية». وفى عام ١٩١٩ نشر ترجمة عربية لرسالة ليو تولستوى (١٨٢٨ - ١٩١٠) «ماذا نحن فاعلون إذا؟» (١٨٨٦) تحت عنوان «مساوئ النظام الاجتماعى وعلاجها». وفى عام ١٩٢٠ نشر ترجمة عربية لكتاب هنرى جورج (١٨٣٩ - ١٨٩٧)» «التقدم والفقر» (١٨٧٩). وخلال فترة عزلته فى الفيوم نشر سلسلة من المقالات تحت عنوان «فلسفة الحياة» فى صحيفة «قارون» المحلية الصادرة فى الفيوم وكتيبا عن تاريخ الفيوم، كما كتب رسالة تحت عنوان «سبعة أيام فى الجنة» لم تنشر بعد.

مصادر كتاب «تاريخ المذاهب الاشتراكية»:

فى حديث مع كاتب هذه السطور فى أواخر سبتمبر ١٩٦٩، أشار المنصورى إلى أنه قد اعتمد فى إعداد كتابه المذكور على كتاب افرنجى تحت عنوان «تاريخ الاشتراكية» إلا أنه لم يتمكن من تذكر اسم مؤلف هذا الكتاب الأخير.

ويفترض كاتب هذه السطور، بشكل أولى، أن الكتاب الرئيسى الذى اعتمد عليه المنصورى هو كتاب الاقتصادى والسوسيولوجى الانجليزى توماس كيركاب (١٨٤٤ - ١٩١٢) «تاريخ الاشتراكية» الذى صدرت طبعته الأولى فى لندن فى عام ١٨٩٢ ثم صدرت طبعته الخامسة المنقحة فى عام ١٩١٣ بمراجعة أ. ر. بيز، وهى الطبعة التى يحتمل أن يكون المنصورى قد اعتمد عليها. إلا أنه لن يتسنى التحقق من مدى صحة هذا الافتراض إلا بفحص كتاب كيركاب نفسه، وهو مالم يتسن لنا حتى الآن.

نبذة عن كتاب «تاريخ المذاهب الاشتراكية»:

بعد مقدمة يسوق الكاتب من خلالها تعاريف لعدد من الكتاب الأجانب عن الاشتراكية، يخصص المنصورى فصلاً للاشتراكية فى فرنسا ثم فصلاً ثانياً للاشتراكية فى انجلترا ثم فصلاً ثالثاً للاشتراكية فى ألمانيا ثم يخصص فصلاً للفوضوية فى روسيا (يبدو أنه لم يكن يعلم شيئاً عن الديمقراطيين الثوريين أو عن الماركسيين الروس) وفصلا آخر عن انتشار الاشتراكية ثم فصلا عن الجمعية الاشتراكية الدولية ثم يخصص فصلا لمناقشة علاقة الاشتراكية بالداروينية ويتحدث بعد ذلك فى فصل تال عن فوضى النظام الاجتماعى المعاصر له، ثم يتناول فى فصل تال ما فعلته الاشتراكية لاصلاح المجتمع ثم يترجم مقتطفاً من عمل

للأديب الفرنسى أناتول فرانس (١٨٤٤ - ١٩٢٤) ويختتم الكتاب بفصل تحت عنوان «مصر والاشتراكية».

والمحتوى الرئيسى للكتاب هو عرض تيارات الفكر الاشتراكى الأوروبى المختلفة ونشاطات الأحزاب الاشتراكية الأوروبية الرئيسية وبرامجها ونتائج نشاطها بالنسبة للطبقة العاملة الأوروبية.

أما مساهمة المنصورى الخاصة فى الكتاب فهى تلك المتعلقة ببرنامج الاصلاحات الذى اقترحه فى الفصل الأخير من كتابه وهو برنامج يتألف من ستين مطلباً أهمها الدعوة إلى جعل الوزارة مسئولة أما الهيئة البرلمانية وكفالة حرية الانتخابات وايجاد محلفين بالمحاكم الأهلية وتعديل القانون الشرعى بما يتمشى مع الروح العصرية والغاء جميع القوانين التى تقيد حرية الاجتماع والخطابة والصحافة. وتندرج جميع مطالب المنصورى ضمن منظور اصلاحى ليبرالى وهو ما أكد عليه المستشرق الروسى زلمان أ. ليفين فى كتابه «الفكر الاجتماعى والسياسى الحديث فى لبنان وسوريا ومصر» والذى ترجمناه إلى العربية فى عام ١٩٧٨[١].

وتتكشف حدود منظور المنصورى فى تجنبه إثارة مسألة إحلال جمهورية محل الحكم السلطانى ومسألة الدعوة إلى انتخاب جمعية تأسيسية شعبية لاقرار دستور ديمقراطى للبلاد ومسألة الدعوة إلى حل المسألة الزراعية حلاً ديمقراطياً وفق مبدأ «الأرض لمن يفلحها»، كما تتكشف حدود هذا المنظور بشكل صارخ فى مجال المسألة القومية حيث يقتصر برنامج المنصورى على الدعوة إلى الغاء امتيازات الأجانب وإلى عدد من المطالب الثانوية دون أن يثير مسألة ضرورة الغاء الحماية البريطانية وجلاء الانجليز عن مصر. ويبدو أن المنصورى لم يكن يدرك أن المسألة المركزية التى كانت تواجه مصر فى زمانه هى مسألة انتزاع الأمة المصرية حقها فى تقرير مصيرها بنفسها وأن تجاهل هذه المسألة يعنى سد السبيل أمام أى حل جذرى لمشاكل مصر الاجتماعية - الاقتصادية. والأسوأ من ذلك أن المنصورى رغم اقراره بأن الاستعمار يؤدى إلى استعباد الأمم المستعمرة يعلن فى كتابه أن الاستعمار «ضرورى جداً لانتشار العمران لأن الأمم المنحطة لاتنهض من تلقاء نفسها وإذا نهضت فإن نهوضها يكون بطيئا جداً»[٢] وهو إعلان كان من المستحيل حتى على سلامه موسى، داعية الفابية المصرى، أن يؤيده.

والواقع أن هذا المنظور هو الذى يفسر ابتعاد المنصورى عن معسكر الجلاثيين وتعاطفه

مع تركيز أحمد لطفى السيد على الاصلاحات الليبرالية الداخلية، كما يفسر فى الوقت نفسه اعرابه عن الأسف لاغتيال القيصر الروسى اليكسندر الثانى (١٨١٨ - ١٨٨١) الذى اعتبره «مصلحاً كبيراً ميالا إلى الحرية»[٣] بينما كان الديمقراطى الثورى الروسى نيكولاى تشيرنيشيفسكى (١٨٢٨ - ١٨٨٩) قد اعتبر الاصلاح الذى أعلنه القيصر فى ٣ مارس ١٨٦١ دليلاً على سوء النية الامبراطورية، وقد ذكر كارل ماركس (١٨١٨ - ١٨٨٣) فى عام ١٨٧٣ أن الاصلاح الذى أعلنه القيصر لم يكن غير خدعة[٤].

المنصورى والاشتراكية:

مع أن المنصورى قد قدم فى كتابه عرضاً موجزاً لجوانب من أفكار الماركسية وتاريخها[٥]، إلا أنه - كما يؤكد على ذلك ز. أ. ليفين - لم يكن هو نفسه ماركسيا[٦] فهو يبدو فى كتابه أكثر إعجابا بسياسات الجناح اليمينى للاشتراكية الديمقراطية الأوروبية الغربية، ويتبدى ذلك، مثلاً، فى اعجابه بسياسة الوزارة التى شكلها رينيه فيفيانى (١٨٦٣ - ١٩٢٥) فى فرنسا فى ٢٠ أغسطس ١٩١٤ إلى حد اعتباره أن فرنسا قد أصبحت فى ظل هذه الوزارة بلداً اشتراكياً تماماً![٧] وذلك فى الوقت الذى أدان فيه الماركسى الروسى ف. أ. لينين (١٨٧٠ - ١٩٢٤) برنامج فيفيانى[٨].

ومن الشطط بعد ذلك أن يعلن كاتب مصرى للمرة الثانية أن المنصورى لم يكن ماركسياً وحسب، بل كان لينينياً أيضاً![٩] وهو إدعاء سبق للمستشرق الألمانى جيرهارد هيوب أن اعتبره مظهراً من مظاهر الرعونة[١٠].

وإذا كان المنصورى قد حقق انتقالاً من الحماس لـ «الاشتراكية» الاستيزارية[١١] فى أوروبا الغربية، فإن هذا الانتقال لم يكن فى أى وقت من الأوقات فى اتجاه الماركسية بل كان فى اتجاه تبنى آراء هنرى جورج والتى كان ليو تولستوى قد أرشد المنصورى إليها من خلال كتابه «ماذا نحن فاعلون إذا؟».

فى هذا الكتاب الأخير - الذى ترجمه المنصورى - يشير تولستوى إلى أن وجود الملكية الخاصة فى الأرض - كما رأى هنرى جورج - هو سبب الشقاء والبؤس، وقد تحمس المنصورى لهذا الرأى فترجم كتاب هنرى جورج ونشره بعد عام واحد من نشره لترجمة كتاب تولستوى.

والحال أن هنرى جورج كان يرى أن السبب الرئيسى لانقسام المجتمع إلى أغنياء وفقراء

هو تجريد الشعب من ملكية الأرض لحساب احتكار من جانب كبار ملاك الأرض، الأمر الذى أدى إلى افقار الشعب. وقد رأى أنه لايمكن إنهاء هذا الافقار إلا عن طريق تأميم الدولة البورجوازية للأرض وتأجيرها للأفراد واستخدام الايجار فى الانفاق على تلبية الحاجات الاجتماعية.

والواقع أن دعوة هنرى جورج لم تكن جديدة بالمرة، إذ ترجع أصولها إلى دعوة مماثلة كان قد بادر بها الاقتصادى الفرنسى البورجوازى الصغير جان كولينز (١٧٨٣ - ١٨٥٨) وتلامذته الملتفون حول مجلة «فلسفة المستقبل» الباريسية الذين سموا أنفسهم بـ «الجماعيين العقلانيين».

والحال أن كارل ماركس قد فند هذا الرأى فى رسالته إلى سورج والمؤرخة فى ٢٠ يونيو ١٨٨١، غداة صدور كتاب هنرى جورج، حيث بين أن التأميم البورجوازى للأرض لايزعزع أسس الرأسمالية، بل يساند تطورها ولايحرر الطبقة العاملة من الفقر. وقد ذكر ماركس فى رسالته بأنه كان قد سبق له توضيح ذلك فى كتابه «بؤس الفلسفة» الصادر فى عام ١٨٤٧[١٢]. وقد فصل ماركس رأيه فى هذا الموضوع فى المجلد الثالث من كتاب «رأس المال» كما طوره فى سجاله مع جوهان رودبيرتوس (١٨٠٥ - ١٨٧٥) فى كتاب «نظريات القيمة الزائدة». وفى عام ١٨٨٧، أوضح فردريك انجلز (١٨٢٠ - ١٨٩٥) تباين آراء ماركس وآراء هنرى جورج حول مسألة الأرض فقال: «إذا كان هنرى جورج يعتبر احتكار الأرض السبب الوحيد للفقر والشقاء، فمن الطبيعى أن يجد العلاج فى استيلاء المجتمع كله على الأرض. والحال أن الاشتراكيين من مدرسة ماركس يطالبون، هم أيضاً، باستيلاء المجتمع على الأرض، وليس على الأرض فقط بل على جميع وسائل الإنتاج أيضاً. ولكن حتى إذا تركنا هذه الأخيرة جانبا، فإن هناك فارقاً آخر. فما الذى يجب عمله مع الأرض؟ إن الاشتراكيين الحديثين، كما يمثلهم ماركس، يطالبون بضرورة حيازتها وفلاحتها بشكل مشاعى ولحساب الجميع، والشئ نفسه يجب عمله مع جميع الوسائل الأخرى للإنتاج الاجتماعى والمناجم والسكك الحديدية والمصانع .. إلخ، ويريد هنرى جورج الاقتصار على تأجيرها للأفراد كما هو الحال فى الوقت الحاضر والاكتفاء بتنظيم توزيعها وتحويل الايجارات إلى خدمة أغراض خاصة كما هو الحال الآن. أما ما يطالب به الاشتراكيون فإنه ينطوى على ثورة كاملة فى مجمل نظام الإنتاج الاجتماعى، إن ما يطالب به هنرى جورج يترك النمط الحالى للإنتاج الاجتماعى على حاله»[١٣].

وربَ قائلٍ أن دعوة هنرى جورج تكتسب فى ظروف بلد متخلف وشبه كولونيالى كمصر فى العشرينيات بعداً جذرياً، من حيث أنها تكون فى تلك الحالة موجهة ضد نمط إنتاج قبل رأسمالى، وبهذا المعنى فإن تبنى المنصورى لدعوة هنرى جورج يدرج الأول فى عداد الديمقراطيين البورجوازيين الذين عرفهم العالم الثالث من أمثال صن يات صن (١٨٦٦ - ١٩٢٥)[١٤]، لكن المشكلة تتمثل فى أن التجربة التاريخية سرعان ما أثبتت استحالة إنجاز مهمات الثورة الديمقراطية البورجوازية التاريخية فى العالم الثالث فى ظل هيمنة البورجوازية، وهو ما يثبت أن هؤلاء الديمقراطيين البورجوازيين كانوا يوتوبيين.

وفى حالة المنصورى الشخصية، كما فى حالة تولستوى الشخصية، فإن النوايا الحسنة تجاه الفلاحين وحسن معاملتهم فى عزبة المدير، كما فى ياسنايا باليانا[١٥]، لم تحل دون ارهاقهم بعد وفاة المنصورى، كما بعد وفاة تولستوى، حين استولى الورثة على الأرض!

* * *

الحواشى:

١- أنظر، ز. أ. ليفين: الفكر الاجتماعى والسياسى الحديث فى لبنان وسوريا ومصر، ترجمة بشير السباعى، دار ابن خلدون، بيروت، ١٩٧٨، ص ٢٩٠.

٢- مصطفى حسنين المنصورى: تاريخ المذاهب الاشتراكية، ١٩١٥، ص ٨٠.

٣- المصدر السابق، ص ٦٥.

٤- أنظر، مؤتمر لاهاى للأممية الأولى، دار التقدم، موسكو، ١٩٧٦، ص ٦١٤ (بالانجليزية).

٥- يفتقر هذا العرض، ضمن أمور أخرى، إلى الإشارة إلى تصور ماركس عن دور الصراع الطبقى فى التطورالتاريخى.

٦- أنظر، ز. أ. ليفين، مصدر سبق ذكره، ص ٢٩٠.

٧- أنظر، مصطفى حسنين المنصورى، مصدر سبق ذكره، ص ٢٧.

٨- أنظر، ف. أ. لينين: الأعمال الكاملة، المجلد ٢١، دار التقدم، موسكو، ١٩٦٤، ص ١٧٨ (بالانجليزية). وللاطلاع على سياسة وزارة فيفيانى، أنظر، تاريخ فرنسا من ثورة ١٧٨٩ إلى نهاية الحرب العالمية الأولى، دار التقدم، موسكو، ١٩٧٨، ص ص ٥٩٤ - ٥٩٨ (بالفرنسية).

٩- أنظر مجلة «اليسار» القاهرية، عدد أكتوبر ١٩٩٠، ص. ص. ٨٦ - ٨٨.

١٠- أنظر، تاريخ واقتصاد بلدان الشرق العربى، دار العلم، موسكو، ١٩٧٣، ص ٢٨٣ (بالروسية).

١١- بدأت الاشتراكية الاستيزارية مع دخول الاشتراكى الفرنسى اليكسندر ميلليران (١٨٥٩ - ١٩٤٣) الوزارة الفرنسية فى عام ١٨٩٩.

١٢- أنظر، ك. ماركس وف. انجلز: المراسلات المختارة، دار التقدم، موسكو، ١٩٦٥، ص ص ٣٤٢ - ٣٤٣ (بالانجليزية).

١٣- أنظر ك. ماركس و ف، انجلز: حول بريطانيا، دار النشر باللغات الأجنبية، موسكو، ١٩٦٢، ص ١١ (بالانجليزية).

١٤- للإطلاع على مناقشة ماركسية لبرنامج صن يات صن الزراعى، المستمد من دعوة هنرى جورج، أنظر، ف. أ. لينين: الأعمال الكاملة، المجلد ١٨، دار النشر باللغات الأجنبية، موسكو، ١٩٦٣، ص ص ١٦٣ - ١٦٩ (بالانجليزية).

١٥- ياسنايا باليانا - عزبة تولستوى.

حاشية حول تاريخ وفاة المنصورى:

لم يتمكن كاتب هذه السطور من تحديد تاريخ وفاة المنصورى من المصادر الرسمية، إلا أن عدداً من فلاحى عزبة المدير ذكروا أنه قد توفى فى «أواخر عهد السادات».

أحمد صادق سعد

(١٩١٩ - ١٩٨٨)

ولد أحمد صادق سعد فى يناير ١٩١٩ فى الاسكندرية باسم ايزيدور سلفادور لأب حرفى يهودى كان قد نزح إلى مصر من تركيا، هو رافاييل سيمون سالتييل، الذى كان أجداده قد نزحوا إلى الامبراطورية العثمانية أثر طرد اليهود الجماعى من اسبانيا فى عام ١٤٩٢، ولأم بورجوازية صغيرة يهودية ولدت فى أوديسا، الميناء الأوكرانى الواقع على البحر الأسود، هى صوفى بيرلياڤسكى، التى عاصرت المذابح المعادية لليهود فى أوكرانيا خلال العهد القيصرى.

وقد حصل أحمد صادق سعد على تعليمه قبل الجامعى فى مدارس فرنسية فى مصر ثم تخرج من كلية الهندسة فى أوائل الأربعينيات.

وكانت اللغة الفرنسية - حتى تخرجه - هى اللغة الرئيسية التى يتحدث ويقرأ بها. إلاّ أنه سرعان ما تمكن - وفى وقت قياسى - من تعلم اللغة العربية والكتابة بها، خلافاً لكثيرين من اقرانه من المثقفين اليهود ذوى الأصول الأجنبية. وهو ما يدل على أن أحمد صادق سعد كان قد قرر - منذ وقت مبكر - البقاء فى مصر وربط مصيره بمصير البلد الذى ولد ونشأ فيه.

وقد ارتبط أحمد صادق سعد فى صدر شبابه - خاصة بعد الإبادة الهتلرية لليهود فى ألمانيا - بعدد من الحركات الشبابية اليهودية المناهضة لمعاداة السامية، مؤكداً بذلك تحرره التام من مؤثرات الصهيونية التى اعتبرت مناهضة معاداة السامية عملاً عبثياً ورأت حل المسألة اليهودية فى تجميع يهود الشتات فى فلسطين. ويبدو أنه كان يدرك ادراكاً جيداً أن الصهيونية لاتبدأ إلاّ مع الكف عن النضال ضد معاداة السامية واليأس من إمكانية تطبيع الحياة اليهودية داخل المجتمعات التى يحيا اليهود فيها.

وعندما قرر عدد من المثقفين اليهود الأجانب الرحيل عن مصر إلى فلسطين - ولو مؤقتاً - إثر اقتراب قوات المحور من مصر فى عام ١٩٤٢، قرر أحمد صادق سعد البقاء فى مصر. وكان قادراً على ادراك أنه إذا ما قدر لهذه القوات احتلال مصر، فلن يكون هناك ما يحول دون اجتياحها فلسطين، وتنظيم مذبحة جماعية لليهود هناك. ولذا فقد رأى أن الخيار الوحيد المناسب هو الصمود والمقاومة، لا الفرار.

وقد ارتبط أحمد صادق سعد فى أواخر الثلاثينيات بـ «الرابطة السلمية» التى كان الشيوعى السويسرى المعروف بول جاكو ديكومب قد أسسها فى مصر إثر مؤتمر امستردام. إلاّ أن الرابطة سرعان ما حلت نفسها إثر نشوب الحرب العالمية الثانية فى سبتمبر ١٩٣٩.

وغداة حل «الرابطة السلمية»، شارك أحمد صادق سعد فى تكوين «جماعة البحوث»، والتى ركزت على اعداد دراسات عن الواقع الاجتماعى المصرى المعاصر وعن تاريخ الحركة القومية المصرية.

وفى عام ١٩٤١، شارك أحمد صادق سعد فى تأسيس «لجنة نشر الثقافة الحديثة» التى ترأسها سعيد خيال، والتى نظمت عدداً من الندوات التى كان يتردد عليها مثقفون يساريون من مختلف الميول.

وفى عام ١٩٤٢، شارك فى تأسيس «جماعة الشباب للثقافة الشعبية» التى مارست النشاط – حتى عام ١٩٤٥ – بين صفوف العمال فى منطقة السبتية بالقاهرة وبين صفوف الفلاحين فى منطقة ميت عقبة بالجيزة. وقد حلت هذه الجماعة نفسها فى عام ١٩٤٥ لتحل محلها «لجنة العمال للتحرر القومى – الهيئة التأسيسية للطبقة العاملة» والتى تولت إصدار مجلة «الضمير».

وفى عام ١٩٤٥، نشر أحمد صادق سعد كراس «مشكلة الفلاح». وقد دعا هذا الكراس إلى تحديد حد أقصى لملكية الأرض الزراعية لايزيد عن خمسين فداناً، وإلى مصادرة الأراضى التى تزيد عن هذا الحد وتوزيعها على الفلاحين المعدمين وإلى إنشاء تعاونيات زراعية إنتاجية. وقد ربط الكراس إجراء هذه التحولات بتحول جذرى فى الهيكل الاجتماعى – الاقتصادى للبلاد.

وترى الباحثة السوفييتية ايفانوفا أن كراس «مشكلة الفلاح» هو أول معالجة ماركسية مصرية للمسألة الزراعية فى مصر.

وفى عام ١٩٤٥، شارك أحمد صادق سعد فى إصدار مجلة «الفجر الجديد» واسهم بالكتابة فيها – بتوقيع «أحمد سعيد» أو «نهاد» – حتى اغلاقها فى يوليو ١٩٤٦ ضمن إطار الحملة المعادية للشيوعية التى شنها اسماعيل صدقى.

وفى عام ١٩٧٦، أعاد أحمد صادق سعد نشر هذه الاسهامات الصحفية على هيئة كتاب تحت عنوان: «صفحات من اليسار المصرى» صدّره بتناول انتقادى لتجربة الحركة الشيوعية المصرية.

وفى عام ١٩٤٦، شارك أحمد صادق سعد فى تأسيس منظمة «الطليعة الشعبية للتحرر»، وتولى قيادة هذه المنظمة حتى منتصف عام ١٩٤٨. وقد غيرت هذه المنظمة اسمها فى عام ١٩٥١ إلى «طليعة العمال» ثم فى عام ١٩٥٧ إلى «حزب العمال والفلاحين الشيوعى المصرى». وعند توحيد الحركة الشيوعية المصرية فى عام ١٩٥٨، جرى استبعاد أحمد صادق سعد من الأجهزة القيادية للحزب الجديد، كجزء من سياسة «تمصيرية» عامة لهذه الأجهزة.

وفى عام ١٩٤٦، نشر أحمد صادق سعد كتاب «فلسطين بين مخالب الاستعمار»، وهو ثانى كتاب يسارى يصدر باللغة العربية فى مصر عن الصهيونية، حيث كان أنور كامل قد نشر قبل ذلك بعامين كتاب: «الصهيونية». وقد استفاد أحمد صادق سعد فى فهم المسألة اليهودية ومضاعفاتها من كتاب اوتو هيلر: «إضمحلال اليهودية»، الذى كان قد صدر بالألمانية فى فيينا فى عام ١٩٣١ والذى اطلع عليه أحمد صادق سعد فى ترجمته الفرنسية الصادرة فى باريس فى عام ١٩٣٩.

وقد تعرض أحمد صادق سعد للاعتقال فى عام ١٩٤٦ ثم فى عام ١٩٤٨.

وعند صدور قرار تقسيم فلسطين فى نوفمبر ١٩٤٧، عارض أحمد صادق سعد القرار على صفحات نشرة «الهدف» الشيوعية السرية، إلاَّ أنه اضطر إلى التراجع عن هذه المعارضة إثر إنتهاء حرب فلسطين، مسايراً بذلك الخط السوفييتى الرسمى تجاه المسألة الفلسطينية.

وعندما بلغت الحملة المعادية للشيوعية ذروتها فى عام ١٩٥٩، تعرض أحمد صادق سعد للاعتقال وظل معتقلاً حتى عام ١٩٦٤[1].

وبعد حل المنظمات الشيوعية لنفسها، انصرف أحمد صادق سعد إلى البحث والكتابة والى إعادة النظر فى تجربة الحركة التى كان أحد مؤسسيها. وتولى فى الوقت نفسه مسئولية إدارة المشروعات بشركات الدلتا الصناعية (ايديال).

وفى عام ١٩٧٩، نشر أحمد صادق سعد كتابه الرئيسى: «تاريخ مصر الاجتماعى - الاقتصادى»، الذى حاول أن يقدم فيه رؤية جديدة للتاريخ المصرى تستند إلى اطروحة ماركس المعروفة عن «النمط الآسيوى للإنتاج»، والتى كانت قد لقيت رواجاً بين صفوف عدد من الباحثين الماركسيين الفرنسيين خلال الستينيات.

وتعتبر محاولة أحمد صادق سعد المحاولة الثانية بعد محاولة إبراهيم عامر فى كتابه

«الأرض والفلاح» (١٩٥٧) لتناول تاريخ مصر الاجتماعى - الاقتصادى تناولاً غير تقليدى.

وقد دلت هذه المحاولة من جانب أحمد صادق سعد على نفوره المتزايد من الاطروحة الستالينية عن «مراحل التطور الخمس الضرورية» والتى كان هو نفسه قد ساعد على ترويجها من قبل.

وقد اتبع أحمد صادق سعد هذا الكتاب الرئيسى بعدد من الكتب والدراسات والمقالات التى تشهد كلها على التوتر الذى أخذ يتزايد احتداداً فى تفكيره بين العقائد الستالينية الجامدة ونتائج البحث الماركسى الجديد فى تاريخ وحاضر العالم الثالث، خاصة مصر والعالم الإسلامى.

* * *

لقد مات أحمد صادق سعد وهو فى غمار البحث الدؤوب عن اجابات عن الأسئلة التى تؤرق بال الكثيرين من المثقفين اليساريين المصريين على عتبات القرن الحادى والعشرين بعد أن تكشف لهم أن الجمود الفكرى لايمكن أن يكون مدخلاً إلى تحقيق مجتمع يكون فيه «التطور الحر لكل فرد هو شرط التطور الحر للجميع»، حسب كلمات «البيان الشيوعى».

ولاعزاء للمتخشبين!

---

(١) خلال سنوات الاعتقال الطوال، أبدت السيدة ديناحموى منشه، زوجته، الكورسيكية الأصل، صموداً لا يقل عن صمود زوجات الديسمبريين الروس فى المنفى السيبيرى. وتولت رعاية صغارهما وسط ظروف شديدة القسوة. فتحية لبسالتها ولبسالة كل النساء اللاتى صمدن خلال المحنة. انهن جديرات بقصيدة من طراز قصيدة نيكراسوف الشهيرة: «نساء روسيات»!.

ماركسية أم ستالينية؟

فى عدد مارس ١٩٨٩ من مجلة «أدب ونقد» اتهمنى الدكتور رفعت السعيد بـ «مهاجمة الماركسية بحجة مهاجمة الستالينية» وباتهامات أخرى تندرج، بطبيعة الحال، تحت هذا الاتهام الرئيسى.

و «الجريمة» التى ارتكبتها تتلخص فى أننى كنت قد ذكرت فى مقال موجز لى فى عدد فبراير ١٩٨٩ من مجلة «أدب ونقد» أن محاولة أحمد صادق سعد (١٩١٩ - ١٩٨٨) تقديم رؤية جديدة للتاريخ المصرى تستند إلى اطروحة كارل ماركس (١٨١٨ - ١٨٨٣) المعروفة عن النمط الآسيوى للإنتاج قد دلت على نفوره المتزايد من الاطروحة الستالينية عن مراحل التطور الخمس الضرورية وأن كتابات أحمد صادق سعد الأخيرة تشهد على التوتر الذى أخذ يتزايد إحتداداً فى تفكيره بين العقائد الستالينية الجامدة ونتائج البحث الماركسى الجديد فى تاريخ وحاضر العالم الثالث، خاصة مصر والعالم الإسلامى.

هذه هى «الجريمة» التى ارتكبتها، إذ أن الدكتور رفعت السعيد يعتبر الاطروحة الخاصة بمراحل التطور الخمس أطروحة ماركسية ولينينية وأنها تشكل جوهر المادية التاريخية، فى حين أننى اعتبر هذه الأطروحة أطروحة ستالينية وأن جوهر المادية التاريخية يقع فى مجال آخر غير مجال «مراحل» التطور، بصرف النظر عن عدد هذه «المراحل»!

والحال أن اطروحة مراحل التطور الخمس الضرورية تستبعد النمط الأسيوى للإنتاج الذى لم يستبعده لا ماركس ولا انجلز (١٨٢٠ - ١٨٩٥) ولا لينين (١٨٧٠ - ١٩٢٤). ورغم أن إنجلز لايشير إلى النمط الآسيوى للإنتاج فى كتابه: «أصل العائلة والملكية الخاصة والدولة» (زيورخ، ١٨٨٤)، إلا أن لينين الذى استشهد فى كتابه: «من هم أصدقاء الشعب وكيف يحاربون الاشتراكيين - الديمقراطيين؟» (١٨٩٤) بإشارة ماركس إلى النمط الآسيوى للإنتاج قد اعتمد فى كتابه المذكور نفسه على كتاب إنجلز، ورغم ذلك فإنه - كما يذكر الكاتب السوفييتى ن. ب. تير - آكوبيان - لم يعتبر كتاب إنجلز متعارضاً مع مخطط ماركس عن التشكيلات الاجتماعية - الاقتصادية![1].

وعلى أية حال، فقد سخر ماركس نفسه فى نوفمبر ١٨٧٧ من محاولة ن. ك. ميخائيلوفسكى (١٨٤٢ - ١٩٠٤)، الشعبى الروسى، تصوير اطروحته عن مسار التطور الذى قاد إلى ظهور الرأسمالية فى أوروبا الغربية على أنها اطروحة عن مراحل تطور جميع المجتمعات البشرية بوجه عام. والحال أن ى. ف. ستالين (١٨٧٩ - ١٩٥٣)قد تورط فى

مثل هذه المحاولة خلال الثلاثينيات[٣]. ولهذا السبب فقد سميت اطروحة «مراحل التطور الخمس الضرورية» اطروحة ستالينية وغير ماركسية، لأن الستالينيين قد عمموا هذه الأطروحة على مجمل التاريخ البشرى العالمى واستبعدوا اطروحة ماركس عن النمط الآسيوى للإنتاج على مدار عقود لم تحدث خلالها مناقشة واحدة فى صفوف أى حزب ستالينى بشأنها إلاّ بعد سنوات من رحيل ستالين![٤].

ومن ناحية أخرى، فإن جوهر المادية التاريخية يقع فى مجال آخر غير مجال مراحل التطور التى ميزت المسيرة التاريخية لهذا المجتمع المحدد أو ذاك. فهذا الجوهر يتمثل فى الكشف عن التفاعل الجدلى بين العناصر الموضوعية والذاتية للتطور التاريخى للمجتمعات البشرية مع إيلاء الأولوية فى عملية تحديد المسيرة التاريخية لعناصر موضوعية على رأسها تبدل أنماط الإنتاج والتبادل، وانقسام المجتمع – الناشئ عن ذلك – إلى طبقات متمايزة ونضالات هذه الطبقات الواحدة ضد الأخرى.

وأخيراً، فإن من حق الدكتور رفعت السعيد أن يختلف مع أحمد صادق سعد – ومع ماركس نفسه – فى مشروعية تطبيق اطروحة النمط الآسيوى للإنتاج على التاريخ المصرى، إلا أن ما ليس من حق الدكتور هو الايحاء بأن هذه الأطروحة غير ماركسية أو معادية للماركسية، فالدكتور – باختصار – لايمكن أن يكون ماركسياً أكثر من ماركس!!

الحواشى:

(١) ن. ب. تير – آكوبيان: «آراء ماركس وانجلز حول النمط الآسيوى للإنتاج والمشترك القروى» فى كتاب: «من تاريخ الماركسية والحركة العمالية الدولية» موسكو، ١٩٧٣، ص ص ١٧٠ – ١٧١، بالروسية.

(٢) ك. ماركس و ف. انجلز الأعمال الكاملة، المجلد ١٩، ص ١٢٠، بالروسية، أو ك. ماركس و ف. انجلز، المراسلات المختارة، موسكو، ١٩٦٥، ص ٣١٣، بالانجليزية.

(٣) ج. ستالين، مسائل اللينينية، بكين، ١٩٧٧، ص ٨٧٧، بالفرنسية.

(٤) حين وجد الدكتور رفعت السعيد نفسه عاجزاً عن إيراد استشهاد واحد من ماركس أو انجلز أو لينين يفيد أن ماركس قد اعتبر «المراحل الخمس» ضرورية لتطور جميع المجتمعات، غرباً وشرقاً، شمالاً وجنوباً، لجأ إلى الاستشهاد بكاتب ستالينى من الدرجة العاشرة، متصوراً أن هذا الكاتب يعبر عن رأى جماعى موحد للمستشرقين السوفييت!.

والحال أن هناك ثلاثة اتجاهات فى الاستشراق السوفييتى:

١ – اتجاه ف. ن. نيكيفوروف ورفاقه الذين يرون أن الشرق قد مر بذات مراحل التطور التى مر بها الغرب الأوروبى؛

٢ – اتجاه ل. س. فاسيليف ورفاقه الذين يرفضون الاطروحة الستالينية عن مراحل التطور الخمس ويرون أن الشرق قد سلك فى تطوره مساراً يختلف جذرياً – على مدار نحو ألفى سنة – عن مسار تطور الغرب الأوروبى، يتميز بسيادة النمط الآسيوى للإنتاج على ما عداه من أنماط؛

٣ – اتجاه ثالث يتخذ موقف التوفيق بين الاتجاهين السابقين.

ومن الناحية التاريخية، فإن اتجاه ف. ن. نيكيفوروف ورفاقه ليس غير امتداد لاتجاه الاستشراق الستالينى الذى يرجع إلى الثلاثينيات، أما الاتجاه الثانى فقد ظهر فى أواسط الستينيات، بينما ظهر الاتجاه الثالث فى أواخر الستينيات.

وللوقوف على معالم الاتجاه الأول، نحيل القارئ إلى كتاب ف. ن. نيكيفوروف: «الشرق والتاريخ العالمى»، موسكو، ١٩٧٥، بالروسية.

وللوقوف على معالم الاتجاه الثانى، نحيل القارئ إلى مقال ل. س. فاسيليف: «العام والخاص فى التطور التاريخى لبلدان الشرق» فى مجلة (شعوب آسيا وأفريقيا)، ١٩٦٥، العدد رقم ٦، بالروسية.

وللوقوف على معالم الاتجاه الثالث، نحيل القارئ إلى «مقدمة» و «خاتمة» كتاب: «تاريخ الهند فى العصور الوسطى»، موسكو، ١٩٦٨، بالروسية.

(٥) يشير ن. ب. تير – آكوبيان فى دراسته التى سلفت الإشارة إليها فى الحاشية رقم (١) إلى أن ماركس وانجلز «نظراً إلى المجتمع الشرقى (مصر والهند تحديداً) بوصفه شكلاً خاصاً من أشكال التنظيم الاجتماعى، يتميز عن الأشكال (أو المراحل) الأخرى لتطور المجتمع البشرى» (ص ١٨١). وفيما يتعلق بمصر تحديداً، أشار الكاتب إلى مقال لماركس يرجع إلى يناير ١٨٤٩، أى إلى ما قبل عشر سنوات من طرح المصطلح.

وبهذه المناسبة، أود أن أشير إلى أن أحمد صادق سعد كان قد حث كاتب هذه السطور، خلال حديث دار بينهما، على ترجمة دراسة ن. ب. تير – آكوبيان. ويبدو أنه قد آن الأوان لإنجاز هذه المهمة.

إجابات وتعليقات موجزة
على أسئلة واتهامات غاضبة

بادئ ذى بدء، أرجو من القارئ الكريم اعفائى من «الرد» على مهاترات وشتائم الدكتور رفعت السعيد التى عاد إلى شحذ نصالها فى عدد إبريل ١٩٨٩ من هذه المجلة.

والواقع أننى كنت قد قصدت من وراء نبرة ردى - الهادئة - على مقاله الذى نشره فى عدد مارس ١٩٨٩ أن تكون رسالة غير مباشرة إليه تدعوه إلى تجنب الانجرار إلى المهاترات والشتائم، خاصة وأن المعارك الفكرية لايمكن كسبها عن طريق مثل هذه الوسائل. ولكن يبدو أن رسالتى إلى الدكتور لم تصل، وأنا لاأملك سوى الأسف لذلك.

* * *

إجابات على تساؤلات:

يتساءل الدكتور رفعت السعيد: أين ومتى وكيف كان ستالين طرفاً فى مناظرة حول أشكال ومراحل تطور التنظيم الاجتماعى؟

وجوابى على هذا التساؤل هو أن ستالين قد تحدث عن أشكال ومراحل تطور التنظيم الاجتماعى فى كراسه الشهير: «المادية الجدلية والمادية التاريخية» فى عام ١٩٣٨ والذى يشكل الجزء الثانى من الفصل الرابع من كتاب: «تاريخ الحزب الشيوعى السوفييتى / البلاشفة». وفى هذا الكراس يحدد ستالين خمسة أنماط أساسية للتنظيم الاجتماعى ولايشير إلى النمط الآسيوى للإنتاج[١].

أما المناظرة الستالينية ضد اطروحة ماركس عن النمط الآسيوى للإنتاج فقد بدأت على نطاق محدود فى عام ١٩٢٩ ثم اتسعت فى عامى ١٩٣٠ و ١٩٣١. وكان أبرز فرسان هذه الحملة هم ج. دوبروفسكى وى. يولك وم. جوديس. وقد اتهموا ماركس بقصور المعلومات وبعدم فهم النمط الاقطاعى للإنتاج (ج. دوبروفسكى) وبعدم فهم تعاليمه هو! (ى. يولك) ويمكن للدكتور الرجوع إلى كتاب ج. دوبروفسكى: «حول مسألة جوهر النمط الآسيوى للإنتاج»، موسكو، ١٩٢٩، بالروسية، وإلى مداخلة ى. يولك المنشورة فى كتاب: «مناقشة حول النمط الآسيوى للإنتاج»، موسكو، لينينجراد، ١٩٣١، بالروسية، وإلى مداخلة م. جوديس فى هذا الكتاب الأخير. كما أن الباحث الاقتصادى السوفييتى الشهير ى. فارجا قد قدم عرضاً جيداً لهذه المناظرة فى كتاب: «دراسات حول مشكلات الاقتصاد

السياسى للرأسمالية»، موسكو، ١٩٦٤، بالروسية. ونحيل الدكتور إلى الترجمة الانجليزية لهذا الكتاب (ص ص ٢٣٠ – ٣٥١)، والمنشورة فى موسكو فى عام ١٩٦٨ تحت عنوان: «المشكلات السياسية – الاقتصادية للرأسمالية»[٢].

ويتساءل الدكتور رفعت السعيد: ما هو المقصود بالقول بأن مراحل التطور الخمس (المشاعية البدائية – العبودية – الاقطاع – الرأسمالية – الشيوعية) مراحل «ضرورية» ؟

وجوابى على هذا التساؤل هو أن المقصود بهذا القول هو أن المراحل الخمس مراحل لابد لأى مجتمع بشرى من المرور بالمراحل الأربع الأولى منها كلها قبل أن يصل إلى المرحلة الشيوعية، وهو قول استنكره ماركس بشدة فى عام ١٨٧٧[٣]، كما أنه يتعارض مع الواقع التاريخى.

ويتساءل الدكتور رفعت السعيد: بأى حق سمح كاتب هذه السطور لنفسه تصنيف المستشرقين السوفييت إلى ثلاث مجموعات متمايزة فى المناظرة حول مشكلات التطور التاريخى لبلدان الشرق وتحديد أسماء ممثلين بارزين لهذه المجموعات؟

وجوابى على هذا التساؤل هو أن هذا التصنيف وهذا التحديد ليسا من عندى – رغم أنهما من حقى ومن حق كل متابع للاستشراق السوفييتى فى مصادره الأصلية! – بل هما من عند المستشرق السوفييتى ل. ب. آلايف والذى قام بهما فى مقال يمكن للدكتور الرجوع إليه فى مجلة «شعوب آسيا وأفريقيا» الروسية، العدد ٤، عام ١٩٧٧، ص ص ٦٧ – ٧٩!.

ويتساءل الدكتور رفعت السعيد أخيراً – واعتذر للقارئ الكريم إذ أورد هذا التساؤل (!) وإذ أجيب عليه: إذا كان بشير السباعى يضع توراييف فى الدرجة العاشرة، ففى أية درجة يضع بشير السباعى نفسه؟

وجوابى على هذا التساؤل هو أننى أضع نفسى فى الدرجة التى يضع نفسه فيها أى إنسان عادى بسيط يحترم الحقيقة التاريخية ويدافع عنها فى وجه أى مزور لها، حتى ولو كان هذا المزور عضواً فى معهد الاستشراق!

المادية التاريخية:

يعلن الدكتور رفعت السعيد نقطتين يدعو إلى وجوب التوقف عندهما:

١ – إن المادية التاريخية ركن أساسى من أركان الماركسية.

٢ – إن المادية التاريخية تقوم على أساس اطروحة مراحل التطور الخمس وأن هذه الأطروحة تشكل جوهر المادية التاريخية.

بالنسبة للنقطة الأولى، لا أدرى بالتحديد ضد من يعلنها الدكتور، فأى ملم بالماركسية سواء أكان ماركسياً أم لم يكن، لايمكن أن ينكر هذه الحقيقة.

وبالنسبة للنقطة الثانية، يكرر الدكتور ما سبق أن قاله فى عدد مارس ١٩٨٩ من هذه المجلة وما سبق أن رددنا عليه فى عدد إبريل ١٩٨٩ . وللمرة الثانية يعجز الدكتور، الذى يزعم أن ماركس وانجلز ولينين يؤيدون هذا الزعم، عن ايراد استشهاد واحد من ماركس أو انجلز أو لينين لتأييد زعمه، وبدلاً من ذلك، يحيلنا الدكتور إلى: السيد غليزرمان الذى لاتعلو درجته كثيراً عن درجة السيد تورابيف!

وحسما لهذه النقطة، أود أن الفت انتباه الدكتور إلى أن ماذكره كاتب هذه السطور فى عدد ابريل ١٩٨٩ من هذه المجلة عن جوهر المادية التاريخية لم يكن أكثر من طرح لما ذكره انجلز عن هذا الموضوع فى رسالته إلى ج. بلوخ بتاريخ ٢١ – ٢٢ سبتمبر ١٨٩٠ وفى مقدمته للطبعة الانجليزية لكراس: «الاشتراكية: الطوباوية والعلمية»، الصادرة فى عام ١٨٩٢ – وأرجو من الدكتور ألا يتصور أننى كنت أزرع «لغما» تروتسكيا فى طريقه، فالرسالة والمقدمة مشهورتان إلى حد بعيد!

نمط مستقل أم حالة خاصة لنمط آخر؟

يشير الدكتور رفعت السعيد إلى أن ماركس وانجلز لم يعتبرا النمط الآسيوى للإنتاج نمطاً مستقلاً، ويحاول الايحاء بأن ماركس وانجلز كانا يعتبران هذا النمط حالة خاصة من حالات العبودية أو الاقطاع!

وعلاوة على أن الدكتور لايثبت صحة هذه الإشارة ولامشروعية هذا الايحاء، فإنه عندما يورد جملة ماركس الشهيرة فى مقدمة كتاب: «مساهمة فى نقد الاقتصاد السياسى» والتى يتحدث فيها ماركس عن أنماط إنتاج متميزة، يحذف عمداً إشارة ماركس إلى النمط الآسيوى للإنتاج والتى ترد قبل إشارة ماركس إلى الأنماط الأخرى: القديم والاقطاعى والبورجوازىالحديث!

وللاطلاع على تفنيد تفصيلى لمثل هذه الإشارة وهذا الايحاء، نحيل القارئ إلى كتاب الباحث السوفييتى ى. فارجا الذى سبقت الإشارة إليه.

ابتكار:

ويستخدم الدكتور رفعت السعيد مصطلحاً جديداً من ابتكاره، هو مصطلح «التشكيلة الخماسية»!

وتعليقاً على هذا الابتكار، نُذَكِّرُ الدكتور بأن من الممكن الحديث عن «تشكيلات اجتماعية - اقتصادية» وعن مخطط لهذه التشكيلات، أما الحديث عن «تشكيلة خماسية» فهو لغز من الالغاز، لا أكثر ولا أقل!

«تأميم» أحمد صادق سعد لحساب «التروتسكية»!

يتصور الدكتور رفعت السعيد أن هناك مؤامرة لـ «تأميم» أحمد صادق سعد لحساب «التروتسكية». وهذا التصور لايستند إلى أى أساس. فمعركة أحمد صادق سعد مع الستالينية معركة جزئية، وتبنى اطروحة النمط الآسيوى للإنتاج ليس علامة فارقة من علامات «التروتسكية» التى يحلو للكثيرين عندنا الحديث عنها واصدار أحكام بشأنها وبشأن علاقتها بالماركسية دون أن يكونوا قد اطلعوا على كتابات تروتسكى!

المسألة باختصار، هى أن «التروتسكية» تعتبر اطروحة النمط الآسيوى للإنتاج اطروحة ماركسية وأن البحث التاريخى هو وحده الذى يمكن أن يسمح بالتحقق من مدى صحة هذه الأطروحة وأن حذف هذه الأطروحة ليس غير تزييف لآراء ماركس عن أنماط الإنتاج وأن الستالينية قد تورطت فى مثل هذا التزييف!

فما الذى يثير الدهشة فى هذا الكلام؟!

وما هو «المنطق» الذى يجيز اعتبار هذا الكلام عداء للماركسية أو دليلاً على الانتقائية؟!

الحواشى:

(١) انظر، «تاريخ الحزب الشيوعى السوفيتى (البلاشفة)»، موسكو، ١٩٤٣، ص ١٢٣، بالانجليزية.

(٢) يعتبر ى. فارجا (١٨٧٩ - ١٩٦٤) من أبرز الباحثين الاقتصاديين السوفييت، وهو من أصل مجرى. وقد عارض جوانب من الستالينية خلال أواخر الأربعينيات، الأمر الذى قاد إلى التنكيل به. ولم يجر رد الاعتبار إليه إلا بعد موت ستالين.

(٣) انظر، رسالة ماركس إلى هيئة تحرير مجلة «المذكرات الوطنية» الروسية، والمنشورة فى ك. ماركس و ف.

انجلز: «المراسلات المختارة»، موسكو، ١٩٦٥، ص ص ٣١١ - ٣١٣، بالانجليزية. وفى هذه الرسالة المهمة، يسخر ماركس من ميخائيلوفسكى على النحو التالى: «إنه يشعر أنه يجب عليه وجوبا مطلقاً أن يمسخ مخططى التاريخى لأصل الرأسمالية فى أوروبا الغربية وأن يحوله إلى نظرية تاريخية - فلسفية عن الطريق العام الذى كتب على كل شعب أن يسلكه، أيا كانت الظروف التاريخية التى يجد نفسه فيها، حتى يتسنى له أن يصل فى نهاية الأمر إلى شكل الاقتصاد الذى يكفل أكمل تطور للإنسان، إلى جانب أكبر اتساع للقوى الإنتاجية للعمل الاجتماعى. لكننى اطلب عفوه»، وقد وصف ماركس مثل هذه النظرية التاريخية - الفلسفية بأنها «مفارقة للتاريخ»!

ومن الواضح أن كلام ماركس هذا يتعارض على طول الخط مع مخطط المراحل الخمس الضرورية الذى عرضه ستالين فى كراس «المادية الجدلية والمادية التاريخية» والذى خلق مشاكل عسيرة للمؤرخين السوفييت الذين استسلموا لاستئصال ستالين اطروحة ماركس عن النمط الآسيوى للإنتاج وأخذوا يجهدون أنفسهم فى البحث عن تعاقب المراحل الأربع الأولى فى تاريخ كل شعب وفى محاولة اكتشاف عبودية أو اقطاع فى تاريخ شعوب لم تعرف قط عبودية أو اقطاعاً، الأمر الذى قاد إلى تزييف تاريخ شعوب بأكملها وإلى تخلف الدراسات التاريخية السوفييتية على مدار عقود. ولم يكن هذا التزييف وهذا التخلف غير نتيجة منطقية للانطلاق من «نظرية تاريخية - فلسفية عن الطريق العام الذى كتب على كل شعب أن يسلكه».

(ملحق)

(رسالة إلى رئيس تحرير مجلة «أدب ونقد»)

السيدة/ فريدة النقاش، رئيس تحرير مجلة «أدب ونقد»

تحية صافية

إذا كان من الواضح أننا ليس لدينا أى اعتراض على قراركم بوقف النقاش الذى بدأه الدكتور رفعت السعيد ضدنا – ذلك النقاش الذى لم نسع إليه أصلاً بل فرضه الدكتور علينا دون أن ينجح فى إثرائه[1] – فلابد أنه من الواضح أيضاً أن ذلك لايعنى التخلى عن حقنا فى الرد على المزاعم والافتراءات التى وجهها الدكتور ضدنا فى رسالته إليكم والمنشورة فى عدد نوفمبر ١٩٨٩ والتى لادخل لها بموضوع النقاش الذى بدأه.

فأولاً، يتهمنا الدكتور بأننا نعتقد دون أية رغبة فى التسامح اننا نمتلك ناصية الحقيقة المطلقة، وهو اعتقاد لاندرى مبرراته، خاصة وأننا كنا قد طالبناه بأن يؤكد مزاعمه التى ينسب فيها مخطط المراحل الخمس إلى ماركس ولينين ولو بإيراد استشهاد واحد فقط من ماركس أو من لينين، وهو ما يعنى أننا قد أبدينا استعدادنا سلفاً للتخلى عن تصوراتنا فى هذا الصدد إذا ما جاء الدكتور بمثل هذا الاستشهاد، وهو ما عجز عنه فى جميع مداخلاته، بينما أوردنا نحن استشهاداً واضحاً من ماركس يؤكد زيف زعمه!

وثانياً، يزعم الدكتور أن اتهامنا له بالستالينية – ما يسميه باستخدام «أوصاف غير مبررة» ! – فى الموضوع المثار – ليس له ما يبرره. ونحن لاندرى كيف يكون هذا الاتهام غير مبرر فى الوقت الذى لم يبين فيه الدكتور كيف تختلف الفكرة التى يدافع عنها عن الفكرة التى دافع عنها ستالين (١٨٧٩ – ١٩٥٣) فى كراس «المادية الجدلية والمادية التاريخية»، والتى لم يوافق عليها ماركس أو لينين. ومن الواضح أن تنصل الدكتور – اللفظى والمتأخر – من الستالينية – فى هذا الوقت بالذات – ليس غير مظهر من مظاهر الرعب أمام انهيار الستالينية المدوى الذى يشاهده العالم بأسره الآن![2].

وثالثاً، يزعم الدكتور أن ردنا الأخير عليه كان حافلاً بمجموعة من الاقتباسات كلها بالروسية، فى حين أن الرد المذكور، رغم اشارته إلى مراجع روسية، لم يورد غير اقتباس واحد من رسالة ماركس إلى هيئة تحرير مجلة «المذكرات الوطنية»، أشرنا إلى مصدره فى ترجمته الانجليزية وأوردناه مترجماً إلى العربية فى الهامش!

وأخيراً، يتهمنا الدكتور – من الناحية الفعلية – بالاحتيال إذ نشير إلى مراجع روسية، فهو يذكر أنه يعتقد أننا – مثله – لانعرف الروسية، وذلك دون أن يورد مبرراً واحداً لهذا «الاعتقاد» ! ومن الواضح أننا إذ نثير هذه النقطة لانهدف إلى تذكير أحد بترجماتنا لعدد من الدراسات الاستشراقية الروسية والتى اشارت مجلة «أدب ونقد» بالفعل إلى أحداها فى صدر عدد فبراير ١٩٨٩ ، فما نهدف إليه هو مجرد الإشارة إلى أن موضوعات هذه الدراسات كلها تندرج ضمن إطار الموضوعات التى يزعم الدكتور الاهتمام بها!

بشير السباعى

٢٧/ ١١/ ١٩٨٩

(١) الواقع أننا إزاء عجز الدكتور البين عن إثراء المناقشة كنا قد بادرنا بإبلاغ السيد سكرتير تحرير المجلة – بعد نشر ردنا الأخير – أننا نكتفى بما قلناه!

(٢) ومن هول الصدمة، يبدو أن الدكتور قد فقد توازنه تماماً، فهو يتحدث فى رسالته عن «التروتسكية»، مؤكداً – جاداً لامازحاً! – أنها قد أصبحت الآن «مرفوضة أكثر من ذى قبل»! وذلك دون أن يوضح لأحد صلة هذا «الاعتقاد» (!) بموضوع المناقشة!

اليهود والحركة الشيوعية المصرية

شكلت الخلفية اليهودية لعدد من قادة الحركة الشيوعية المصرية بين عامى ١٩١٨ و ١٩٥٨ – ومن بين هؤلاء القادة أحمد صادق سعد (١٩١٩ – ١٩٨٨) – مبرراً من مبررات الهجوم الإيديولوجى على هذه الحركة من جانب ممثلى التيارات القومية الشوفينية على اختلافها. وقد ساعد على اتساع نفوذ هذا الهجوم واقع أنه قد تستر بإدعاء الدفاع عن المصالح القومية العربية وواقع أن قيادات الحركة الشيوعية المصرية قد أظهرت تقصيراً ملحوظاً فى مجال الدفاع عن هذه المصالح فى فلسطين خلال عامى ١٩٤٧ و ١٩٤٨.

ومن ناحية أخرى، فقد شارك فى هذا الهجوم الإيديولوجى فى السنوات الأخيرة عدد من الكتاب البارزين، على رأسهم المستشار طارق البشرى، الذى كان أحمد صادق سعد يكن له تقديراً خاصاً فيما يتعلق بجانب من تناوله لتاريخ الحركات التلقائية الشعبية فى مصر، من ناحية، ولايخفى الإعراب عن عدم ارتياحه لكثير من استنتاجاته، من ناحية أخرى.

ويمكننا الإدعاء بأن أحمد صادق سعد ما كان ليقبل، بشكل خاص، استنتاجات المستشار طارق البشرى بشأن مسألة «اليهود والحركة الشيوعية المصرية» والتى عاد الأخير إلى عرضها فى عدد أبريل ١٩٨٨ من مجلة «الهلال» القاهرية بعد أن كان قد سبق له أن فعل ذلك بشكل تفصيلى فى كتابه: «المسلمون والأقباط فى إطار الجماعة الوطنية» (القاهرة، ١٩٨١).

* * *

يمكن تلخيص الاستنتاجات التى توصل إليها طارق البشرى فيما يلى:

١– أن الحركة الشيوعية المصرية قد عرفت اليهود مؤسسين لها أو مندوبين للأممية الشيوعية أو مسؤولين فى هيئات الأممية المسؤولة عن النشاط الشيوعى فى الشرق الأوسط.

٢– أن الوجود اليهودى الأجنبى فى الحركة الشيوعية المصرية لم يكن بعيداً عن التحرك الصهيونى.

٣– أن التوجه اليهودى الأجنبى إلى الحركة الشيوعية المصرية، بعد إلغاء الامتيازات الأجنبية، كان جزءاً من سعى الجاليات الأجنبية فى مصر إلى تأمين إمتيازاتها الاجتماعية – الاقتصادية.

٤– أن جانباً من الصراع السياسى داخل الحركة الشيوعية المصرية يجد تفسيره فى سعى

العناصر اليهودية الأجنبية داخل الحركة إلى إستبقاء هيمنتها على الحركة في مواجهة الكوادر المصرية.

وقد استند طارق البشرى، فى التوصل إلى هذه الإستنتاجات، إلى كتب رفعت السعيد عن «تاريخ الحركة الشيوعية المصرية»، وإلى كتاب الأستاذ محمد سيد أحمد: «مستقبل النظام الحزبى فى مصر» (القاهرة، ١٩٨٤) وإلى كتاب الأستاذ سعد زهران «فى أصول السياسة المصرية» (القاهرة، ١٩٨٥).

ومن بين هؤلاء الكتاب الثلاثة، فإن رفعت السعيد كان الوحيد الذى اعترض على تفسير طارق البشرى لما كتبه حول دور اليهود فى الحركة الشيوعية المصرية (رفعت السعيد: تاريخ الحركة الشيوعية المصرية من ١٩٤٠ إلى، ١٩٥٠ شركة الأمل، القاهرة، ١٩٨٨، ص ٦)، إلا أنه لم يناقش الإستنتاجات التى توصل إليها طارق البشرى، وكأنها لاتستحق المناقشة، رغم أن رفعت السعيد يقرر أن الأخير اتخذ من كتاباته - كتابات رفعت السعيد - «مادة للدعاية المضادة لليسار» (المصدر السابق، ص ٥). ويبدو أن رفعت السعيد لايقدر هذه الدعاية على نحو ما يجب، خاصة عندما يبادر بها مؤرخ واسع النفوذ مثل طارق البشرى.

وسوف نحاول فى السطور التالية مناقشة استنتاجات طارق البشرى والتى أوحت بها إليه كتابات المذكورين.

* * *

١- عرفت الحركة الشيوعية المصرية اليهود الأجانب مؤسسين لها أو مندوبين للأممية الشيوعية أو مسؤولين فى هيئات الأممية المسؤولة عن النشاط الشيوعى فى الشرق الأوسط. هذا صحيح. فعلى سبيل المثال، كان جوزيف روزنتال واحداً من مؤسسى الخلايا الشيوعية فى مصر بعد ثورة أكتوبر ١٩١٧ فى روسيا، وكان روبرت جولدنبرج سكرتيراً للجنة القاهرة للحزب الشيوعى المصرى الأول، وكان أ. افيجدور و أ. ن. تيبير (الشهير تحت الاسم الحركى أ. شامى) (١٨٩٣ - ١٩٤٢)، عضو الحزب الشيوعى الفلسطينى من عام ١٩٢٢ وعضو الحزب الشيوعى السورى فى عامى ١٩٢٥ و ١٩٢٦ ومندوب اللجنة التنفيذية للأممية الشيوعية فى عامى ١٩٢٧ و ١٩٢٨ والأستاذ بالجامعة الشيوعية لكادحى الشرق حتى عام ١٩٢٩ مندوبين للجنة التنفيذية للأممية الشيوعية لدى الحزب الشيوعى المصرى الأول، وكان فولف ب. آفيربوخ (الشهير تحت الإسمين الحركيين أبو زيام وحيدر) (١٨٩٣ - ١٩٤١)، عضو الحزب الشيوعى الفلسطينى اعتباراً من عام ١٩٢٢ والسكرتير

العام للحزب المذكور بين عامى ١٩٢٣ و ١٩٣٠ واحد مسؤولى الأممية الشيوعية بين عامى ١٩٣١ و ١٩٣٥، مسؤولاً عن القسم العربى بالجامعة الشيوعية لكادحى الشرق خلال أوائل الثلاثينيات، وكان ف. ا. روتشتاين (١٨٧١ - ١٩٥٣)، مؤلف كتاب «خراب مصر» (١٩١٠)، وكتاب «الإنجليز فى مصر» (١٩٢٥)، من كبار الكتاب الروس الذين وجهت تحليلاتهم جانباً من مواقف الكومنترن تجاه مصر.

هؤلاء جميعاً كانوا يهوداً، وكان هناك يهود آخرون لعبوا أدواراً أقل شأناً.

على أن الحركة الشيوعية المصرية قد عرفت كذلك - وهو ما لايمكن أن يجهله طارق البشرى ـ الشوام المسيحيين واليونانيين والقبارصة والأرمن والإيطاليين والسويسريين، بل واليابانيين والبلغاريين مؤسسين لها أو مندوبين للجنة التنفيذية للأممية الشيوعية أو مسؤولين فى هيئات الأممية - المؤقتة والدائمة - المسئولة عن النشاط الشيوعى فى الشرق الأوسط. ومن المؤكد أن طارق البشرى يعرف أن اللبنانى المسيحى انطون مارون (١٨٨٥ - ١٩٢٥)، المحامى والصحفى اللامع، كان أحد منظمى النقابات العمالية المصرية وأحد مؤسسى وقادة الحزب الشيوعى المصرى الأول، وأن اليابانى «سين كاتاياما»، كان رئيس لجنة المسألة المصرية التى أعدت مشروع قرار المؤتمر العالمى الرابع للأممية الشيوعية (نوفمبر - ديسمبر ١٩٢٢) بشأن الحزب الاشتراكى المصرى، وأن البلغارى جيورجى ديمتروف (١٨٨٢ - ١٩٤٩) كان أحد راسمى توجيهات الكومنترن إلى الشيوعيين المصريين فى عام ١٩٣٦ وأن الصينى وانغ مينج (١٩٠٤ - ١٩٧٤) كان يوجه نصائحه إلى الشيوعيين المصريين فى عام ١٩٣٥، إلخ، إلخ.

المسألة إذاً ليست مسألة يهود بشكل محدد. بل مسألة طبيعة الحركة الشيوعية بوصفها حركة غير قومية توحد فى صفوفها مناضلين من مختلف الجنسيات، دون تمييز بين يهودى أجنبى أو مصرى أصيل أو لبنانى مهجرى أو يونانى وافد، إلخ.

والحال أن وجود عناصر تنتمى إلى أقليات مختلفة، أجنبية أو محلية، فى حركة سياسية كالحركة الشيوعية، ليس ظاهرة استثنائية فى التاريخ العربى أو غير العربى. ذلك أن الحركة القومية - التنويرية العربية فى الإمبراطورية العثمانية فى الشطر الأخير من القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، مثلاً، قد عرفت المسيحيين الشوام قادة ومفكرين ومؤسسين لجمعيات تنويرية ومناضلين ضد الإستبداد التركى وداعين إلى أفكار القومية العربية، كما عرفت الحركة القومية - التنويرية المصرية فى الفترة ذاتها اليهود والشوام المسيحيين قوميين ومنورين.

وقد وجد هذا الواقع التاريخى تفسيراً له فى كتابات عدد من المستشرقين، نذكر من بينهم زلمان ايساكوفيتش ليفين وأ. جورافسكى.

وعندما نتحدث عن وجود عناصر من الجاليات الأجنبية فى الحركة الشيوعية المصرية خلال الفترة من عام ١٩١٨ إلى عام ١٩٥٨ فإننا نتحدث عن عناصر طليعية من المثقفين وأشباه المثقفين والعمال المنتمين إلى مثل هذه الجاليات لا عن الجماهير الغفيرة للأخيرة. فالواقع أن هذه الجماهير، لأسباب اجتماعية – سياسية تاريخية محددة، قد ظلت خارج الحركة الشيوعية المصرية، بل واتخذت منها موقفاً عدائياً من خلال إندراجها – على الأغلب – فى حركات قومية مناوئة للشيوعية. وكانت نسبة المناضلين المنتمين إلى الجاليات الأجنبية فى الحركة الشيوعية المصرية إلى المناضلين المصريين أقل من نسبة إجمالى أفراد الجاليات الأجنبية إلى عدد السكان المصريين. وكان هؤلاء المناضلون الأجانب يمثلون نسبة لاتكاد تذكر من أفراد الجاليات الأجنبية التى ينتمون إليها.

وعندما بدأ تكوين الخلايا الشيوعية الأولى فى مصر عام ١٩١٨ كان العدد الإجمالى لأفراد الجاليات الأجنبية نحو ٣٣٠ ألف نسمة فى بلد يبلغ تعداد سكانه ١٣ مليون نسمة. وكان من الطبيعى أن تندرج أعداد من أفراد هذه الجاليات فى صفوف الحركة الشيوعية، مثلما اندرجت أعداد أخرى – بدرجة أعلى بكثير – فى حركات سياسية أخرى كالحركة القومية الأرمنية أو الحركة الفاشية الإيطالية أو الحركة الصهيونية اليهودية.

والواقع أن وجود اليهود فى الحركة الشيوعية، خاصة فى بداياتها، ليس قاصراً على الحركة الشيوعية المصرية. فقد عرفت الحركات الشيوعية فى العديد من البلدان التى توجد بها أقليات يهودية محلية أو يهود أجانب ظاهرة اندراج مثقفين وأشباه مثقفين وعمال متقدمين يهود فى صفوفها. وقد أشار ليون تروتسكى (١٨٧٩ – ١٩٤٠) إلى هذا الواقع فى عام ١٩٣٩ حيث أوضح أن اليهود فى مثل تلك البلدان «يشكلون أشباه أجانب، غير مستوعبين بالكامل، منفصلين عن الموروثات القومية للشعوب التى يحيون بينها، وينتمون إلى كل اتجاه انتقادى جديد، ثورى أو شبه ثورى، فى السياسة، والفن، والأدب، إلخ».

باختصار، لايجب التوقف عند واقع وجود عناصر يهودية أجنبية فى الحركة الشيوعية المصرية، خاصة فى بداياتها، بل يجب الإنتقال من رصد هذا الواقع إلى محاولة تفسيره، وهذا يجرنا إلى ثانى استنتاجات طارق البشرى.

٢– فى تجاهل تام لتفسير كذلك الذى قدمناه، يزعم طارق البشرى أن «الوجود

اليهودى الأجنبى فى الحركة الشيوعية المصرية لم يكن بعيداً عن التحرك الصهيونى فى منطقة المشرق العربى» .

هذا إذاً هو تفسيره، أو أحد تفسيراته، للوجود اليهودى الأجنبى فى الحركة الشيوعية المصرية.

يستند طارق البشرى فى هذا التفسير إلى واقع رئيسى: تأييد أغلب الكوادر اليهودية داخل الحركة الشيوعية المصرية، خاصة فى عامى ١٩٤٧ و ١٩٤٨ لقرار الأمم المتحدة بشأن تقسيم فلسطين.

ولابد من التساؤل: هل كان هذا التأييد صادراً عن عقيدة صهيونية لدى هذه الكوادر أم كان صادراً عن ذيلية هذه الكوادر السياسية تجاه البيروقراطية السوفييتية التى أيدت هذا القرار؟

لقد أيدت أحزاب ستالينية عديدة، ليست تحت سيطرة كوادر يهودية، هذا القرار، وكذلك فعلت كوادر ستالينية مصرية غير يهودية. بينما عارضته - فى البداية على الأقل - كوادر ستالينية يهودية فى الحركة الشيوعية المصرية. هذا واقع تاريخى.

ورغم أننا لانستبعد احتمال حدوث اختراق صهيونى تخريبى للحركة الشيوعية فى عدد من بلدان المشرق العربى ومصر، إلا أننا نعتقد أن تأييد غالبية الكوادر اليهودية لمشروع إنشاء دولة يهودية فى فلسطين كان صادراً عن الذيلية السياسية لهذه الكوادر تجاه ستالين، الذى لم يكن، بطبيعة الحال، يهودياً، بل والذى يمكن التأكيد على أنه كان معادياً للسامية.

والحال أن هذه الكوادر اليهودية التى عززت سيطرتها على الحركة الشيوعية بين عامى ١٩٤٣ و ١٩٤٧ من خلال التوحد مع الستالينية التى اكتسبت قوة مؤقتة فى نهاية الحرب العالمية الثانية، كانت مهددة بفقدان هذه السيطرة إن اعترضت على موقف ستالين الشائن من المسألة الفلسطينية. وبسبب تربيتها البراجماتية، فقد كيفت مواقفها مع موقف ستالين الذى كان - من الناحية العملية الموضوعية - مؤيداً للمشروع الصهيونى.

وحيث أن هذه القيادات لم تكن تتمتع بأية سيطرة ذات وزن على القطاعات الرئيسية للحركة الجماهيرية، فإنها لم تخف من خسارة مثل هذه السيطرة - غير الموجودة - إذا أيدت موقف ستالين، وكان شاغلها الرئيسى هو السيطرة على الحلقات التى كانت تتزعمها والتى ربتها على روح الولاء لخط «الأخ الأكبر» .

ومن ناحية أخرى، فإن الكوادر اليهودية داخل الحركة التروتسكية العالمية، وعلى رأسها أرنست ماندل وييجال جلوكشتاين (الشهير تحت اسم تونى كليف) قد اتخذت موقفاً أممياً عند تفجر النزاع العربى - الصهيونى فى عامى ١٩٤٧ و ١٩٤٨ ووقفت ضد قرار تقسيم فلسطين وشجبت اعتراف ستالين بالدولة الصهيونية.

المسألة إذا ليست مسألة يهود، بل مسألة سياسة. وقد كانت سياسة غالبية الكوادر الستالينية اليهودية تجاه النزاع المذكور سياسة انتهازية، غير ماركسية.

٣- أما التفسير الثانى الذى يقدمه طارق البشرى للوجود اليهودى فى الحركة الشيوعية المصرية بعد إلغاء الإمتيازات الأجنبية فى مصر فى عام ١٩٣٧ فهو أغرب من التفسير الأول.

يزعم طارق البشرى أن التوجه اليهودى الأجنبى إلى الحركة الشيوعية المصرية كان جزءاً من سعى الجاليات الأجنبية إلى تأمين إمتيازاتها الاجتماعية - الاقتصادية.

لقد سبق أن أشرنا إلى أن الجماهير الغفيرة للجاليات الأجنبية فى مصر قد ظلت خارج الحركة الشيوعية، بل واتخذت منها موقفاً عدائياً، وقد عبرت صحافة هذه الجاليات الصادرة فى مصر عن هذا العداء مراراً، كما أن جماهير هذه الجاليات الغفيرة كانت غارقة، بحكم تكوينها الاجتماعى، فى حركاتها القومية الخاصة: كان هذا حال الأرمن وما يزال حالهم إلى اليوم وكان هذا هو حال غالبية أفراد الجالية الإيطالية التى راهنت على موسولينى، خاصة بعد نجاح غزو الحبشة، وكان هذا هو حال جانب غير قليل من اليهود الأجانب الذين راهنوا على اقتراب تحقق المشروع الصهيونى فى فلسطين، إلخ.

ومن ناحية أخرى، فإن ميل الجاليات الأجنبية إلى تأمين إمتيازاتها الاجتماعية - الاقتصادية قد فرض على هذه الجاليات تأييد الديكتاتوريات المصرية التى كانت تقمع كل تحرك جماهيرى مضاد للإمتياز الاجتماعى - الاقتصادى، سواء كان مصرياً أو أجنبياً. ومن غير المفهوم أن يتوجه الأجانب فى مصر إلى الحركة الشيوعية - التى لاتخفى عداءها للإمتياز الاجتماعى - الاقتصادى، خاصة الأجنبى - سعياً إلى ... تأمين امتيازاتهم.

إن التفسير الذى يقدمه طارق البشرى ليس سوى لغز نرجو أن يتمكن من تفسيره.

لقد كان الرهان الرئيسى للجاليات الأجنبية المتميزة فى مصر بعد الحرب العالمية الثانية، مثلما كان قبلها، يتمثل فى تأكيد السيطرة البريطانية على البلاد وفى تأييد وجود جيش الإحتلال.

لقد تدفق الأجانب على مصر مع عملية استعمار مصر، خاصة بعد الاحتلال البريطانى فى عام ١٨٨٢ وأخذت الجماهير الغفيرة لهذه الجاليات فى النزوح عن مصر بشكل جماعى بعد جلاء الجيش البريطانى فى عام ١٩٥٦.

ذلك واقع تاريخى معروف للجميع، ولاندرى لماذا اختار طارق البشرى تجاهل مغزى هذا الواقع وراح يتحدث عن رهان الجاليات الأجنبية على ... الحركة الشيوعية.

٤- يزعم طارق البشرى أن جانباً من الصراع السياسى داخل الحركة الشيوعية المصرية فى الأربعينيات وأوائل الخمسينيات يجد تفسيره فى سعى العناصر اليهودية الأجنبية داخل الحركة إلى إستبقاء هيمنتها على الحركة فى مواجهة الكوادر المصرية.

هذا الإستنتاج ضرورى لتعزيز مجمل إستنتاجات طارق البشرى السابقة حول أهداف الوجود اليهودى الأجنبى فى الحركة الشيوعية المصرية.

ولاندرى لماذا يتحدث طارق البشرى عن «الصراع السياسى» داخل الحركة الشيوعية المصرية بينما يعرف الجميع أن صراعات الفصائل الستالينية الداخلية كانت فى أغلبها صراعات مبتذلة - ومريرة للأسف - بين حلقات وشيع وتجمعات معزولة عن القطاعات الرئيسية للحركة الجماهيرية؟

إن الصراع على الصدارة، فى ظرف كهذا، لايحتاج تفسيره إلى البحث عن «مذنب» يهودى، فقد كان الجميع «مذنبين»، وكان الجميع غائبين عن دور القائد السياسى الفعلى للطبقة العاملة المصرية.

والحال أن غياب حركة شيوعية ذات نفوذ رئيسى داخل الحركة العمالية هو من الأمور التى تشجع على الصراعات الفصائلية غير المبدئية وغير المسؤولة وعلى ميول كسب الصدارة داخل الحلقات وعلى احتداد الإنقسامات وتزايد الإنشقاقات اللامبدئية. ولاتتراجع هذه الظواهر السلبية إلا عندما تكون الحركة الشيوعية حركة مسؤولة أمام جماهير عريضة. ولم تكن الحركة الستالينية المصرية حركة مسؤولة أمام جماهير عريضة ولم تكن هذه الجماهير مهتمة بالوقوف على النزاعات الفصائلية داخل صفوف الحركة الستالينية لأنها لم تكن تتحسس خطورة هذه النزاعات على حركتها التى لم ينجح الستالينيون المصريون فى تحقيق انغراس مؤثر ومستقر فى صفوفها.

وبسبب افتقار غالبية كوادر الحركة الستالينية إلى تربية أممية، فقد كان من السهل على الزعماء المتنازعين إذكاء الشوفينية القومية داخل الحلقات، سعياً إلى كسب الصدارة، وتبادل

الإتهامات فيما بينهم، فى الوقت نفسه، بخيانة الأممية البروليتارية.

لقد بينا زيف تفسيرات طارق البشرى للوجود اليهودى الأجنبى فى الحركة الشيوعية المصرية، ومع سقوط هذه التفسيرات يسقط، كذلك، تفسيره للنزاعات الفصائلية داخل هذه الحركة.

مسائل منهجية:

لاشك أن طارق البشرى يدرك جيداً أن التحقق من صدق رواية ما عن موضوع تاريخى ما وصحة نسب وثيقة ما هو من المقومات الأساسية للبحث التأريخى.

ورغم ذلك، فإن طارق البشرى لم يهتم بإجراء مثل هذا التحقق فى موضوع «اليهود والحركة الشيوعية المصرية». وسوف نكتفى للتدليل على ذلك بإيراد مثالين:

١- ينقل طارق البشرى رواية عبد الرحمن فضل - التى أدلى بها الأخير لرفعت السعيد، حسب زعم رفعت السعيد - عن تجربته فى موسكو.

وفى هذه الرواية، يتحدث عبد الرحمن فضل عن أبو زيام باعتباره «يهودياً عربياً، كان ينفذ الأغراض الصهيونية». وقد ذكر عبد الرحمن فضل أن أبو زيام قد أبعد عن الكومنترن فى عام ١٩٣٥ ضمن «٧٠ شخصاً صهيونياً»، الأمر الذى اعتبره عبد الرحمن فضل تأكيداً لمخاوف وشكوك الشيوعيين العرب تجاه أولئك الأشخاص.

لايتحرى رفعت السعيد صدق هذه الرواية. إنه يكتفى بإثباتها دون إثارة أى شكوك حولها. وطارق البشرى - للأسف! - يفعل الشئ نفسه، ويرتب عليها جانباً من استنتاجاته!

والحال أن هذه الرواية زائفة من أساسها.

فأولاً، لم يكن أبو زيام يهودياً عربياً، بل كان يهودياً روسياً. وقد سبق أن أشرنا إلى اسمه الحقيقى.

وثانياً، رغم أن أبو زيام قد أُعدم فى عام ١٩٤١ بتهمة العمالة للإستعمار والدعوة للصهيونية، إلا أنه قد أنكر هذه التهمة. وجرى رد الإعتبار إليه رسمياً فى عام ١٩٥٧ .

٢- يسلم طارق البشرى بإدعاء رفعت السعيد أن الوثيقة التى تحمل عنوان «المشكلة الفلسطينية» ترجع إلى قلم هنرى كورييل.

لم يحاول طارق البشرى التحقق من صحة نسب الوثيقة المذكورة إلى هنرى كورييل،

رغم أن إدعاء رفعت السعيد بوجود «دلائل عديدة» على صحة هذا النسب لايتضمن إشارة إلى دليل واحد.

بل على العكس، هناك ما يشير إلى عدم صحة هذا النسب.

فأولاً، لايشير هنرى كورييل نفسه فى الحديث الذى أجراه معه رفعت السعيد فى باريس فى ٢/ ٤/ ١٩٧٣ والذى تحدث فيه الأول عن تطور موقفه تجاه المسألة الفلسطينية، إلى هذه الوثيقة.

وثانياً، لايشير جيل بيرو، الذى كتب سيرة هنرى كورييل وتناول تطور موقفه تجاه المسألة الفلسطينية، إلى هذه الوثيقة، رغم أن جيل بيرو قد اطلع على كامل أرشيف هنرى كورييل.

وثالثاً، لايشير هنرى كورييل إلى هذه الوثيقة فى الجزء الذى يحمل عنوان: «موقف الحركة المصرية للتحرر الوطنى من المشكلة الفلسطينية» من تقريره عن تاريخ الحركة بين عامى ١٩٤٣ و ١٩٤٨.

ورابعاً، يبدو من الوثيقة أن التحليل الذى تتضمنه للمشكلة الفلسطينية يتوقف عند خريف ١٩٤٥. وفى تلك الفترة كان كورييل غارقاً حتى أذنيه فى التعامل مع مشكلات تنظيمية داخل الحركة المصرية للتحرر الوطنى، بشكل كان يتعذر معه عليه التفرغ لإعداد وثيقة عن المشكلة الفلسطينية.

وخامساً، تستند الوثيقة المذكورة إلى مراجع عبرية - ضمن مراجع أخرى - ولم يكن هنرى كورييل - فى عام ١٩٤٥ على الأقل إن لم يكن بعد ذلك أيضاً - على إلمام باللغة العبرية.

وسادساً، تتضمن الوثيقة ملاحظات عن كيبوتزات فى فلسطين، لاتتوافر إلا لشاهد عيان. والحال أن هنرى كورييل لم يكن قد زار فلسطين فى الفترة التى ترتبط بها هذه الملاحظات.

وسابعاً، يكشف تحليل بنية الوثيقة أنها لاتمت بصلة لبنية مختلف محررات هنرى كورييل. ولو نشرت هذه الوثيقة ضمن مجموعة كتابات هنرى كورييل لاكتشف القارئ العادى ذلك.

وثامناً، يعلن هنرى كورييل فى سيرته الذاتية أنه ورفاقه لم يهتموا بالقضية الفلسطينية خلال

الفترة التى من المفترض أن الوثيقة قد كتبت فيها.

وأخيراً، فإن التاريخ الذى ذيلت به الوثيقة تاريخ مزيف، لأن الوثيقة نفسها تستشهد بمراجع صدرت بعد ذلك التاريخ.

إننا نكتفى بالمثلين السابقين للتدليل على أن طارق البشرى لم يلتزم فى موضوع «اليهود والحركة الشيوعية المصرية» بقواعد البحث التأريخى.

البيروقراطية السوفييتية
والستالينية المصرية

انبثقت الحركة الشيوعية المصرية إلى الوجود تحت تأثير الغليان الثورى الذى اجتاح العالم شرقاً وغرباً بعد ثورة أكتوبر ١٩١٧ فى روسيا. وعلى مدار تاريخ الحركة، عبرت مصائرها عن مصائر تلك الثورة. ويتجلى ذلك عبر ثلاث مراحل رئيسية متميزة.

المرحلة الأولى من عام ١٩١٨ إلى عام ١٩٢٤

شهدت تلك المرحلة ظهور الحلقات الشيوعية الأولى فى عدد من مدن مصر الكوزموبوليتية بشكل رئيسى (الاسكندرية، القاهرة، بورسعيد، ... إلخ)، حيث تدافع مثقفون وعمال متقدمون بينهم نسبة مهمة من الأجانب، إلى تشكيل الحلقات الشيوعية التى تحولت فيما بعد إلى الحزب الشيوعى المصرى الأول عبر مسيرة معقدة - وإن كانت قصيرة نسبياً - من الاتحاد مع الإصلاحيين السافرين.

وفى تلك المرحلة، أظهر الحزب الشيوعى المصرى الأول تعاطفاً كبيراً مع مثل الثورة البلشفية، وهو تعاطف لم يتحول إلى تمثل عميق لمبادئ الماركسية الثورية أو لخبرة الحزب البلشفى، إذ ظل جانب كبير من كوادر الحزب تحت الهيمنة الفكرية لسنديكالية سوريل ولاجارديل أو لتضامنية نوردو أو لإنسانوية جماعة كلارتيه الفرنسية البورجوازية الصغيرة أو للكوزموبوليتية الماسونية. ولاتدل كتابات الكوادر القيادية للحزب على أنها قد تعلمت شيئاً يذكر من انتقادات قادة الثورة البلشفية لمثل هذه التيارات التى كانت متفشية فى صفوف اليسار الفرنسى. وهناك شك أصلا فى أن تكون هذه الكوادر قد اطلعت على هذه الانتقادات.

وعندما نزل القمع البوليسى بهذه الكوادر فى عام ١٩٢٤، تبعثر شمل الحزب الفتى قبل أن تتسنى له فرصة تمثل مبادئ الماركسية الثورية وتحويل تعاطفاته مع مثل الثورة البلشفية إلى اتجاه فكرى - سياسى محدد الملامح، وذلك على الرغم من موافقة الحزب - الصورية إلى حد بعيد - على الشروط الـ ٢١ للالتحاق بالأممية الشيوعية.

وقد ترافق تشتيت شمل الحزب فى عام ١٩٢٤ مع تراجع الحركة العمالية الثورية فى الغرب ومع تحييد نفوذ المعارضة اليسارية اللينينية فى صفوف الحزب الشيوعى السوفييتى

والأممية الشيوعية وتزايد هيمنة الستالينية واستراتيجيتها اليمينية داخل صفوف الحركة الشيوعية العلمية على حساب الماركسية الثورية. . . .

ولم تخلف لنا أدبيات ووثائق الحزب الشيوعى المصرى خلال تلك الفترة شيئا يدل على أن كوادر الحزب كانت على دراية بالنزاع الذى نشب منذ عام ١٩٢٣ داخل صفوف الحزب الشيوعى السوفييتى والأممية الشيوعية بين الستالينية والمعارضة اليسارية حول مسائل تطور الاتحاد السوفييتى والثورة العالمية أو أنها كانت على دراية بالمستوى الذى وصل إليه الانحطاط البيروقراطى للدولة وللحزب فى الاتحاد السوفييتى أو بالمغزى الرجعى المضاد للثورة لاستراتيجية ستالين - بوخارين القومية المستترة منذ أكتوبر ١٩٢٤ تحت ستار بناء الاشتراكية فى بلد واحد.

ويمكن تصور أن هذه التطورات الكبرى قد حدثت دون أن تجد صدى يذكر فى صفوف الشيوعيين المصريين الذين يبدو أنهم كانوا غارقين بالكامل فى المشاكل القومية لحركتهم ومفتقرين لأية منظورات أممية.

المرحلة الثانية من عام ١٩٢٥ إلى عام ١٩٨٩

شهدت تلك المرحلة بدء عملية إعادة بناء الحزب الشيوعى المصرى فى عام ١٩٢٥ بمبادرة مباشرة من جانب الكومنترن الستالينى وإخضاع الحزب لتسلط الستالينية الفكرى والسياسى والتنظيمى. وإذا كان القمع البوليسى الذى نزل بالحزب فى عام ١٩٢٤ قد أجهز على الكوادر القيادية التى ظهرت بين عامى ١٩١٨ و ١٩٢٤، فإن ذلك القمع قد ساعد على تسهيل الهيمنة الستالينية على عملية إعادة بناء الحزب، حيث أن الكوادر التى كان يمكن لها أن تدخل، ولو على المدى البعيد، فى صدام مع الستالينية حول هذه القضية أو تلك، كانت قد اختفت من مسرح النشاط السياسى.

ومنذ أواسط العشرينيات، جرى إرغام الحزب الشيوعى المصرى على تبنى السياسات التى حاولت الستالينية تطبيقها فى البلدان المستعمرة وشبه المستعمرة، خاصة الصين، والتى أدت، فى عام ١٩٢٧، إلى هزيمة الثورة الصينية الثانية.

وهكذا، ففى ٦ ابريل ١٩٢٥، أجاز الاجتماع الموسع الخامس للجنة التنفيذية للأممية الشيوعية قراراً عن الموقف السياسى فى الهند وأندونيسيا ومصر، دعا الشيوعيين الهنود إلى مواصلة العمل داخل حزب المؤتمر الهندى البورجوازى ودعا الشيوعيين الاندونيسيين إلى

حشد الجماهير العريضة خلف حزب ساريكات راكجات وحدد للشيوعيين المصريين هدف العمل من أجل تأسيس حلف موحد مع حزب الوفد الذى أشار إليه القرار بوصفه حزباً قومياً - ثورياً!

يجب أن نتذكر أن هذا الحزب (القومى - الثورى) لم يبد أية مقاومة تجاه حل البرلمان - ذى الأغلبية الوفدية - المنتخب فى أوائل عام ١٩٢٥، والذى تآمر الملك فؤاد الأول مع الإنجليز على تسريحه بعد عشر ساعات فقط من انعقاده!

والحال أن هذا القرار الذى يتعارض على طول الخط مع توجهات المؤتمر الثانى للأممية الشيوعية (١٩٢٠) تجاه المسألة القومية والكولونيالية، كان تعبيراً عن سيادة الاستراتيجية المنشفية - الستالينية عن ثورة على مرحلتين: ثورة ديمقراطية بورجوازية من خلال تحالف استراتيجى مع الأحزاب القومية البورجوازية الإصلاحية، ثم ثورة اشتراكية تحدث فى مستقبل بعيد.

وغداة وفاة سعد زغلول فى عام ١٩٢٧، أشار الكومنترن الستالينى، فى مرثية للزعيم الراحل، إلى أن الموقف والتناقضات فى مصر تجعل ديكتاتورية البروليتاريا مدخلاً غير واقعى للتعامل مع مهام الثورة القومية - الديمقراطية، وكأن هذه المهام يمكن أن تنجز من خلال ديكتاتورية ديمقراطية بورجوازية، وهو أمر كان لينين قد استبعده فى إبريل ١٩١٧ بالنسبة لروسيا ثم أكد على استحالته بوجه عام، فى ١٢ يناير ١٩١٨، حيث قال إنه لايمكن تصور أية ثورة ديمقراطية بشكل منسجم دون ديكتاتورية البروليتاريا.

وخلال فترة الأزمة الاقتصادية - العالمية (١٩٢٩ - ١٩٣٣)، تحولت توجهات الكومنترن الستالينى إلى المغامرة اليسارية، إلى استراتيجية رعناء بشأن ما سمى بالفترة الثالثة التى تجعل شعار ديكتاتورية البروليتاريا مدرجا بشكل فورى - عملى فى جدول أعمال جميع الأحزاب الشيوعية، مع نبذ شعار الجبهة العمالية المتحدة واعتبار الاشتراكية - الديمقراطية اشتراكية - فاشية. وقد أدت هذه الاستراتيجية المغامرة إلى تسهيل وصول هتلر إلى الحكم فى ألمانيا، أما فى مصر فقد أدت إلى ابتعاد الشيوعيين المصريين - المهمشين بما يكفى بالفعل - عن المشاركة فى أحداث مايو ١٩٣١ الثورية، ثم تخلفوا عن قيادة أى إضراب عمالى خلال الثلاثينيات.

ومع تحول الكومنترن الستالينى إلى اليمين بعد عام ١٩٣٣ - فى اتجاه الجبهات الشعبية والجبهات الوطنية - جرى إبلاغ الشيوعيين المصريين مرة أخرى بوجوب التحالف مع حزب

الوفد. وفى ٢٦ فبراير ١٩٣٦، دعت أمانة اللجنة التنفيذية للأممية الشيوعية الشيوعيين المصريين المبعثرين إلى تأييد حزب الوفد، وذلك قبل ستة شهور فقط من توقيع زعيم الحزب المذكور على المعاهدة الأنجلو - مصرية!

وإذا كانت صفحة العلاقات التنظيمية بين الشيوعيين المصريين والكومنترن الستالينى قد انطوت بعد فبراير ١٩٣٦ أو بعد ذلك التاريخ بوقت قصير، وإذا كان الشيوعيون المصريون قد أبدوا فى عدد من المناسبات أشكالاً جزئية من عدم التجاوب مع توجهات الكومنترن، إلا أن هيمنة الستالينية على أغلب فصائل الحركة الشيوعية المصرية فى ميلادها الثانى قد بقيت - بل وتعززت - على المستويين الفكرى والسياسى.

وسرعان ما تبدت هذه الهيمنة منذ بدايات الميلاد الثانى، ففى فترة معاهدة عام ١٩٣٩ بين الاتحاد السوفييتى وألمانيا النازية، سكتت العناصر الستالينية عن توجيه النقد إلى الفاشية وقوبل معارضو المعاهدة المذكورة من السرياليين والماركسيين المؤسسين لجماعة (الفن والحرية) بالتنديد من جانب هذه العناصر. وتعرض أحد نقاد المعاهدة الماركسيين لردود فعل غوغائية من جانب العناصر الستالينية المحتشدة فى النادى الديمقراطى.

وفى فترة الحرب العالمية الثانية، خاصة بعد يونيو ١٩٤١، تبنى الستالينيون المصريون أكذوبة الحرب من أجل الديمقراطية ولم يميزوا بين حرب الاتحاد السوفييتى المشروعة ضد الغزو النازى والطابع الرجعى العام للحرب بين مختلف القوى الامبريالية. وفى هذا السياق، قوبلت دعايتهم المضللة بالتحبيذ من جانب البريطانيين والقوى السياسية البورجوازية المصرية المتحالفة معهم، وتخلى الستالينيون المصريون عن مساعدة الحركة الجماهيرية القومية العفوية المناوئة للاستعمار البريطانى على اتخاذ التوجهات المناسبة. ومن الناحية العملية، فإن أغلب فصائل الحركة الشيوعية المصرية قد أجلت الكفاح المعادى للانجليز إلى أواخر الحرب، استرشاداً بالاستراتيجية الستالينية خلال فترة الحرب العالمية الثانية والتى مالت إلى اعتبار الحركات القومية - التحررية فى المستعمرات وأشباه المستعمرات الإنجليزية حركات مخربة للمجهود الحربى للحلفاء!

وعندما انتهت الحرب العالمية الثانية واشتد ساعد الحركة القومية - التحررية المصرية حرصت الفصائل الستالينية على التمسك باستراتيجية ستالين المنشفية عن ثورة على مرحلتين، وتورطت فى مختلف التحالفات مع القوى السياسية البورجوازية والبورجوازية الصغيرة القومية على أساس منظورات بورجوازية قومية.

وعندما تفجرت المسألة الفلسطينية فى ١٩٤٧ - ١٩٤٨، برزت أغلب هذه الفصائل مواقف البيروقراطية السوفييتية تجاه النزاع فى فلسطين، كما برزت اعتراف الأخيرة بالدولة الصهيونية، الأمر الذى وجه ضربة قاسية إلى مجمل اليسار.

واعتباراً من مؤتمر باندونج وعقد صفقة الأسلحة المصرية - التشيكية فى عام ١٩٥٥، انخرطت فصائل الحركة الستالينية المصرية فى مسيرة سياسية معقدة جرتها إلى السير فى ذيل الناصرية ثم، فى نهاية الأمر، إلى حل هياكلها التنظيمية والاندراج فى مهمة تحقيق هيمنة الناصرية الايديولوجية والسياسية باسم الدفاع عن التطور اللارأسمالى الذى روج له الايديولوجيونالسوفييت.

وعلى مدار الفترة الممتدة من عام ١٩٢٥ إلى عام ١٩٦٥، دافعت أغلب فصائل الحركة الشيوعية المصرية عن التسلط البيروقراطى داخل الاتحاد السوفييتى وصورت تجربة روسيا الستالينية فى صورة الاشتراكية وطابقت بين ديكتاتورية البيروقراطية وديكتاتورية البروليتاريا وشجبت المعارضة اليسارية فى الاتحاد السوفييتى واندرجت فى كورس الافتراءات الستالينية ضد البلاشفة الذين أعدموا خلال الثلاثينيات وشجبت الانتفاضات العمالية المضادة للبيروقراطية فى ألمانيا الشرقية فى عام١٩٥٣ وفى بولندا والمجر فى عام ١٩٥٦ بوصفها حركات مضادة للثورة، وبررت التدابير القمعية التى اتخذتها البيروقراطية الستالينية ضد تلك الانتفاضات، ومن هذه الزاوية، ساعدت على تزييف وعى الجماهير.

ومع الميلاد الثالث للحركة الشيوعية المصرية، وعلى الرغم من درجات الاستقلال الذى أبدته فصائل داخل هذه الحركة تجاه البيروقراطية السوفييتية، فإن الفصائل الرئيسية داخل هذه الحركة لم تعلن قط القطيعة مع الستالينية ولم تتحول إلى مواقع الماركسية الثورية ودافعت فى أكثر من مناسبة عن سياسات غادرة عديدة للبيروقراطية السوفييتية ولم تثر الشك ولو مرة واحدة فى «اشتراكية» النموذج البيروقراطى!

المرحلة الثالثة من عام ١٩٨٩

بدأت هذه المرحلة مع تفجر أزمة النموذج البيروقراطى فى الاتحاد السوفييتى ومع السقوط المتسارع للديكتاتوريات الستالينية فى عدد من دول أوروبا الشرقية.

وحيث أن الستالينيين المصريين لم يكونوا مسلحين بأية أفكار ماركسية عن أزمة الدول المتدهورة بيروقراطياً، فإن هذه المرحلة تعتبر مرحلة صدمة مريرة ذات مقاييس جسيمة.

إن ما نشهده الآن بين صفوفهم هو تعبيرات مختلفة عن وصول أزمة الستالينية المصرية إلى ذروتها.

وأول ما نشهده، هو تلك القراءة الزائفة لمجمل تاريخ الماركسية ومصائر ثورة أكتوبر والحركة العمالية العالمية والرأسمالية المعاصرة.

. فهناك من يتحدث الآن بشكل سافر عن فوات أوان الماركسية وعن يوتوبية التوقعات الماركسية عن مجتمع المستقبل. وهناك من يتحدث عن قدرات الرأسمالية غير المحدودة على البقاء وعلى توفير الحريات السياسية والحقوق الإنسانية ومستويات معيشية عالية بالنسبة لغالبية السكان.

وهناك من يردد مع جورباتشوف أن البيروسترويكا ليست غير تجديد للاشتراكية، وهناك من يعلن أن ثورة أكتوبر كانت تمرداً إراديا مغامراً على قوانين التطور الاجتماعي، وهناك من يحاول اختلاق تحليل «ماركسي» لأزمة الدول المتدهورة بيروقراطياً منفصل عن مجمل التراث الماركسي الناقد للديكتاتورية البيروقراطية ومعارض لاستنتاجاته الاستراتيجية والبرنامجية، إلخ.

والحال أن كل هذه المواقف والرؤى ليست غير تجليات لأزمة الستالينية المصرية الفكرية.

فما يكمن خلف كل هذه المواقف والرؤى ليس أقل من عجز كامل عن استيعاب مغزى الانقلابات الاجتماعية والسياسية الكبرى المعاصرة، وهو عجز ناشئ عن افتقار الستالينيين المصريين المزمن إلى بوصلة الماركسية الثورية التى حرمتهم من الاهتداء بها تصالحاتهم الجوهرية مع الأمر الواقع التى جرتهم إلى التكيف مع أيديولوجية وسياسات البيروقراطيةالسوفييتية.

ومن المؤكد أن الجورباتشوفية لن تكون مخرجاً من الأزمة.

الماركسية ولاهوت الدولة

أمّا وأن الدكتور غالى شكرى قد صدق الحكمة الرائجة التى تتحدث عن «نهاية الماركسية» فسوف يكون من العبث أن ندعوه إلى تذكر أن جان جاك روسو (١٧١٢ - ١٧٧٨) وماكسميليان روبسبير (١٧٥٨ - ١٧٩٤) لايتحملان المسؤولية عن الهذيان المهدوى الذى دفع بونابارت (١٧٦٩ - ١٨٢١) إلى الادعاء أمام مشايخ الأزهر بأنه الرسول الذى جاء ليتمم رسالة نبى الإسلام، ولا إلى تذكر أن «البيان الشيوعى» قد كتب فى عشية ثورة ١٨٤٨ وليس فى عشية التاسع من ثيرميدور من العام السادس لثورة أكتوبر!

لكن من الواضح، على أية حال، أن فيلسوف العقد الاجتماعى ليس هو الأب الشرعى لانقلاب بروميير (نوفمبر ١٧٩٩) ولا لإعلان الامبراطورية من جانب الكورسيكى الذى كان، يوما ما، تلميذاً لروسو وجنديا من جنود الثورة والجمهورية. كما أن من الواضح، بالمثل، أن ماركس (١٨١٨ - ١٨٨٣)، الذى كتب «مساهمة فى نقد فلسفة الحق الهيجيلية»، ليس هو الأب الشرعى للبيروقراطية الستالينية التى أنجبها، بين عوامل أخرى، تخلف روسيا وتراجع الثورة الأوروبية.

والحال أن الفيلسوف الألمانى للثورة العالمية كان قد كتب فى عام ١٨٤٣ ما يلى: «إن شكلانية الدولة، وهى ما تمثله البيروقراطية، هى الدولة بوصفها شكلانية. وقد وصفها هيجل بأنها شكلانية كهذه بالتحديد. ولأن شكلانية الدولة هذه تصوغ نفسها بوصفها سلطة واقعية وتصبح هى نفسها محتوى نفسها المادى، فمن الواضح أن البيروقراطية غشاء لوهم عملى، أو أنها وهم الدولة. إن العقل البيروقراطى هو عقل يسوعى ولاهوتى حتى النخاع. والبيروقراطيون هم يسوعيو ولاهوتيو الدولة. والبيروقراطية هى الجمهورية الكاهن».

ومن الصعب على المرء ألا يتذكر هذه الفقرة عند قراءة مقال الدكتور غالى شكرى المنشور فى عدد يونيو ١٩٩٣ من مجلة «القاهرة»، حيث يتحدث الكاتب، دون تردد، عن «كهنة الماركسية وأحبارها من جدانوف إلى سوسلوف»، بدلاً من أن يعترف بالواقع التاريخى والذى يتمثل فى أن هؤلاء كانوا مجرد ديماجوجيين كرسوا لاهوتهم الستالينى البائس للدفاع عن الامتيازات الواقعية للبيروقراطية التى ينتمون إليها وليس للدفاع عن «طهارة» الماركسية، التى يعرف كل مثقف نزيه أنها قد تعرضت لأسوأ كبت عرفه التاريخ المعاصر على أيدى مثل هؤلاء الديماجوجيين بالتحديد.

وتستوقف القارئ أحكام وإشارات مثيرة أخرى:

* مثلاً، ليس صحيحاً بالمرة أن جوركى (١٨٦٨ - ١٩٣٦) كان من «كبار المؤمنين» بالماركسية أو باللينينية. فبعد هزيمة الثورة الروسية الأولى (١٩٠٥ - ١٩٠٧)، تحالف مع الكاتب المعروف أناتولى لوناتشارسكى (١٨٧٥ - ١٩٣٣) الذى راح يدعو إلى تحويل الاشتراكية إلى دين للفقراء وفكر جدياً فى ابتداع شعائر لهذا الدين، وهو تحالف قاد إلى خلاف عميق بين الأديب الروسى ولينين (١٨٧٠ - ١٩٢٤) الذى لم يتسامح مع استسلام الرجل لتيار التصوف الذى استولى على شرائح من الانتلجنتسيا الروسية فى سنوات الرجعية (١٩٠٨ - ١٩١٢) والذى انتج رواية جوركى، «الاعتراف». ثم إن رحيل جوركى عن روسيا فى عام ١٩٢١ لم يكن بسبب استياء الأديب الروسى من تحويل مزعوم للماركسية إلى عقيدة للدولة وللمجتمع (فى ذلك الوقت، لم يشر إلى الماركسية فى دستور الحزب نفسه!) بل كان بسبب رغبته المستحيلة فى أن يرى ثورة دون «اضطراب» ودون حرب أهلية ودون مساس بعدد من المثقفين حتى ولو كانوا من جنود الثورة المضادة الفاعلين، وهو ما أزعج لينين كثيراً ودفعه إلى تسهيل رحيل جوركى إلى الخارج حيث راح يصب اللعنات على الثورة بلاحساب. وعندما عاد الأخير إلى روسيا بصفة دائمة فى عام ١٩٣١، ارتاح إلى صيغ الستالينية القومية، واستسلم لوهم أن ازدهار «الثقافة» يمكن أن يسير يداً بيد مع «الاستبداد المستنير» وهو استسلام عرفت الانتلجنتسيا المصرية مثيلاً له خلال العهد الناصرى![1].

* ومثلاً، ليس صحيحاً أن تروتسكى (١٨٧٩ - ١٩٤٠) قد «اختار المنفى البعيد ولكنهم طاردوه حتى طالوه برصاصة واحدة»، فقد نفى الرجل مجبراً إلى تركيا فى عام ١٩٢٩، ثم جرد من جنسيته السوفييتية، وفى نهاية الأمر، لم يجد ملاذاً إلاً فى المكسيك فى زمن تأميم مصالح النفط الأمريكية حيث طالوه - بالمناسبة - بضربة بلطة وليس برصاصة! (من المثير أن الناقد الأدبى المعروف لايعرف سيرة - ناهيك عن أفكار - الرجل الذى لم يفت ت. س. اليوت ولا ادموند ويلسون الاشادة باسهاماته فى مجال النقد الأدبى، والذى ترك لنا كتابات جد مهمة عن الأدب الروسى وعن الأدب الفرنسى..).

* ومثلاً، ليس صحيحاً بالمرة أن «خروشوف كان أول من فضح المكبوت فزعزع أركان الستالينية» إذ لايمكن المماراة فى أن تروتسكى، صاحب «مدرسة التزييف الستالينية»

---

(١) حول جوركى ولوناتشارسكى، ارجع إلى: ليون تروتسكى: بورتريهات سياسية وشخصية، نيويورك، ١٩٧٧ (بالانجليزية).

(١٩٣٢) وصاحب «الثورة المغدورة» (١٩٣٧)، كان هو ورفاقه أول من فضح المكبوت، وقد فعلوا ذلك من منظور ماركسى وبشكل منهجى، وليس بشكل غوغائى ومن منظور الدفاع عن المصالح الإجمالية للبيروقراطية، كما فعل خروشوف، شريك ستالين (١٨٧٩ - ١٩٥٣) فى جرائمه منذ الثلاثينيات!

والحال أن الدكتور غالى شكرى يدين اللاهوت الذى يحكم من غير قراءة أوراق المحكوم عليه، إلا أنه لايبدو أنه قد نجا هو نفسه من مثل هذه الممارسة، فقد غابت عنه أوراق الماركسية وأوراق الثورة الروسية، وأصدر حكما هو أكثر بلاغة فى تصوير تحيزات «القاضى».

ماركس ودستويڤسكى

على الرغم من أننا لن نعثر لدى ماركس على إشارة واحدة إلى دستويفسكى وعلى الرغم من احتمال ألاّ نجد عند الأخير إشارة واحدة إلى الأول، فإن من الطبيعى أن نتوقع مساحة ما - بل مساحات عديدة - يتحركان عليها، كل بالشكل الذى يراه مناسباً.

والمساحة التى يتحدث عنها البرتو مورافيا فى مقالته «المبارزة بين ماركس ودستويفسكى» («ابداع»، ديسمبر ١٩٩١) هى مساحة «الأخلاق» من حيث هى شاغل فلسفى محورى. أما حركة كل من ماركس ودستويفسكى على هذه المساحة فهى، فى رأى مورافيا، حركة متنافرة. فالاتجاه الذى يسير فيه ماركس هو عكس الاتجاه الذى يسير فيه دستويفسكى. وما ذلك إلا لأن نقطة انطلاق الأول ليست نقطة انطلاق الأخير.

كيف؟

نحن نعرف أن ماركس يرد الأخلاق إلى شروط إنسانية تاريخية ملموسة، وهو، بهذا المعنى، لايمكن أن يكون مسيحياً خلافاً لدستويفسكى، الذى يعتبر الأوامر الأخلاقية سرمدية ومنفصلة عن الشروط التاريخية للحياة الإنسانية، فهى أوامر إلزامية أياً كانت هذه الشروط. إن دستويفسكى يمكن - فى مجال الأخلاق - أن يكون كانطياً، وهو ما لايمكن أن يكونه ماركس.

وإذا انتقلنا من مستوى الأخلاق الفلسفى العام إلى مستوى خاص محدد كمستوى «الشر»، فسوف نجد أن ماركس يرد الشر أساساً إلى الشروط اللاإنسانية التى يحيا فيها البشر وأن التخلص من الشر يتوقف أساساً على التخلص من تلك الشروط. فهل يرى المسيحى دستويفسكى رأياً آخر؟

يزعم مورافيا أن دستويفسكى كان يعتبر الشر حقيقة متأصلة فى قلب كل إنسان، ومن ثم فإن من المستحيل التخلص من الشر فى هذا العالم. فالتخلص من الشر لايمكن أن يتحقق إلا بوصول الخلاص المسيحى إلى غايته، أى بعد أن نفارق هذا العالم: إن «الأخوة الحقيقية» مستحيلة فى هذا العالم.

هنا بالتحديد يتمثل افتراء مورافيا على دستويفسكى. فالأديب الروسى الكبير الذى كتب رواية «الأبله» كان يرى أن «الأخوة الحقيقية» بين البشر هدف يجب السعى إلى تحقيقه فى هذا العالم، لأنه هدف ممكن. وبعبارة أخرى: إن الشر ليس حقيقة متأصلة فى

قلب كل إنسان! وأياً كان الافتراق بين ماركس ودستويفسكى فيما يتعلق بسبل تحقيق هذه «الأخوة الحقيقية» بين البشر، فإن كلاً من الرجلين لم يتنكر لهدف تحقيقها فى هذا العالم.

وبعد الافتراء على دستويفسكى يجيئ الافتراء على ماركس. فأخلاق ماركس - وفق مورافيا - هى عين الأخلاق التى قادت راسكولنيكوف (الشخصية الرئيسية فى رواية دستويفسكى: «الجريمة والعقاب») إلى ارتكاب جريمته.

ودون أن نتوقف عند مقارنات مورافيا السخيفة بين دعوة ماركس إلى مصادرة البورجوازية وقتل راسكولنيكوف للمرابية العجوز، نتوقف أمام السؤال التالى:

ما هى الأخلاق التى قادت إلى تلك الجريمة؟ لن نجد صعوبة فى إدراك كنهها إذا ما تتبعنا رؤى راسكولنيكوف عن «الإنسان غير العادى» و «الناس العاديين»، وبالمناسبة، فإن هذه الرؤى قد تشكلت تحت تأثير كتاب نابوليون الثالث (١٨٠٨ - ١٨٧٣) «تاريخ يوليوس قيصر» (١٨٦٥) والذى أثار نقاشاً حاداً بين صفوف المثقفين الروس فور صدوره. وليس من المصادفات أن أحداث «الجريمة والعقاب» تدور فى عام ١٨٦٥، كما ذكر ذلك دستويفسكى، وهو نفس العام الذى صدر فيه كتاب امبراطور فرنسا.

إن أخلاق راسكولنيكوف هى، باختصار، أخلاق تأكيد الصوت الخاص «غير العادى» على حساب أصوات الآخرين «العاديين»، بل وعلى حساب أرواحهم.

ويقدم راسكولنيكوف نفسه لنا نموذجاً لهذا الصوت «غير العادى»، هو صوت نابوليون بونابارت (١٧٦٩ - ١٨٢١). فهذا الأخير «يدمر طولون ويرتكب مذبحة فى باريس وينسى الجيش فى مصر». وهذه الأحداث كلها، كما نعرف، ليست على مستوى أخلاقى واحد من الزاوية التاريخية، ولاحتى من زاوية وعى بونابارت نفسه، خلال كل حدث منها، بدلالاتها. فالهجوم على طولون فى ليل ١٧ ديسمبر ١٧٩٣ والذى تكلل بالانتصار فى مساء اليوم التالى، كان مأثرة ثورية انتهت بتمريغ علم البوربون الملكى فى الوحل وإنقاذ الثورة من تهديد جسيم. أما المذبحة التى ارتكبت فى باريس فى ١٣ أكتوبر ١٧٩٥، فهى إن كانت قد أدت إلى الإجهاز على عصيان الملكيين، الذى شجع عليه التحول إلى اليمين بعد انقلاب ٩ ثيرميدور على اليعاقبة، إلا أنها قد افسحت السبيل أمام تشجيع الميول البونابارتية. وأمّا نسيان الجيش فى مصر فى عام ١٧٩٩ فهو لم يكن إلا بهدف احتكار السلطة فى باريس.

إن ما يعجب راسكولنيكوف فى بونابارت ليس أياً من هذه الأدوار المختلفة التى لعبها

الأخير، بل بالتحديد، عزم بونابارت على تأكيد الصوت الخاص «غير العادى» على حساب الأصوات الأخرى. ويتذكر راسكولنيكوف أن بونابارت لم ينس الجيش فى مصر وحسب، بل أنه بدد أرواح مئات الآلاف من الناس فى الحملة على موسكو!

فما الذى يجمع بين هذه الأخلاق والأخلاق الماركسية؟ لا شئ، لا شئ البتة!

إننا لسنا بحاجة إلى التشديد أكثر من اللازم على ما يعرفه كل مثقف نزيه: إن الأخلاق الماركسية لاتعترف بإهدار أصوات الآخرين «العاديين» لحساب الصوت الفريد «غير العادى». ومن السخف أن يتصور المرء أن ماركس قد تثقف على يدى الإمبراطور الذى كتب سيرة «يوليوس قيصر»!

وإذا كان ماركس ليس تلميذاً للويس بونابارت، فمن السخف بالمثل اعتباره استاذاً ليوسف ستالين الذى هو بالمناسبة، بونابارت آخر!

يزعم مورافيا أن الشر الذى اندفع كالسيل من باب الستالينية قد دخل أولاً من نافذة الماركسية: نحن إذا أمام تعبير جديد عن زعم عتيق: لقد انبثقت الستالينية من الماركسية!

أين الدليل؟ ما من دليل. اللهم إلا إذا اعتبرنا الثيرميدور الستالينى إنجازاً لمثل ثورة أكتوبر!

لكن الثيرميدور الستالينى هو، بحكم التعريف، حافر قبر تلك الثورة: إن «انبثاق» الستالينية من الماركسية هو انبثاق النفى لا الإثبات.

وبهذا المعنى، يصبح كبت ستالين لإبداع دستويفسكى أمراً مفهوما: إنه جزء من كبت الماركسية والثورة، على الرغم من أن إبداع دستويفسكى والماركسية والثورة ليست شيئاً واحداً.

والأمر كذلك لأن كبت إبداع دستويفسكى ليس أكثر من تكريس للفقر الروحى. فإثراء الروح يحتاج إلى هذا الإبداع. وعلى الأقل، كان هذا هو رأى تروتسكى – الماركسى الذى اغتيل على يد عميل ستالينى:

«إن ما سوف ينهله العامل من ... دستويفسكى سوف يكون فكرة أكثر تركيباً عن الشخصية الإنسانية، عن عواطفها ومشاعرها، فهماً أعمق وأبعد غوراً لقواها النفسية ولدور الوعى الباطن، إلخ. فى التحليل الأخير سوف يصبح العامل أكثر ثراء».

وبالمناسبة، فقد كتب هذا الكلام فى عام ١٩٢٣، عام تفجر النزاع بين الماركسية والستالينية!

من جوجول إلى محمد حسنين هيكل!

لاتستند فكرة «الشخصية القومية» أو «الخصوصية السيكولوجية» أو «التكوين النفسى المشترك» لشعب من الشعوب إلى أى أساس علمى، حتى الآن على الأقل!

والأرجح أن هذه الفكرة تجد جذوراً لها فى الفولكلور وقد تسربت من الفولكلور إلى فلسفات التاريخ المثالية، خاصة فلسفات التاريخ الكلاسيكية الألمانية وإلى جانب من الكتابات الاستشراقية المبكرة ثم لقيت انتشاراً واسعاً فى كتابات الايديولوجيين القوميين، خاصة خلال فترات الحروب «الساخنة» و «الباردة» على حد سواء.

وقد وقف الجمهور القارئ العربى على جانب من الصياغات الأوروبية لهذه الفكرة من خلال كتابات السوسيولوجى المثالى الفرنسى جوستاف لوبون (١٨٤١ - ١٩٣١)، الذى ترجمت أعماله الرئيسية إلى العربية فى أوائل هذا القرن.

وقد تسربت هذه الفكرة إلى صفوف الانتلجنتسيا اليسارية العربية من خلال كراس جوزيف ستالين (١٨٧٩ - ١٩٥٣) «الماركسية والمسألة القومية» (١٩١٣) الذى أدرج «التكوين النفسى المشترك» فى تعريف الأمة، مواصلاً بذلك جانبا من آراء أوتو باور (١٨٨١ - ١٩٣٨) التى كان الأخير قد أعرب عنها فى كتابه «المسألة القومية والاشتراكية الديمقراطية»، الصادر فى فيينا فى عام ١٩٠٧. وغنى عن البيان أن لينين (١٨٧٠ - ١٩٢٤) قد سخر من نظرية أوتو باور السيكولوجية فى معرض نقاشه لمسألة حق الأمم فى تقرير مصيرها بنفسها.

وفى كتابه الأخير، «الزلزال السوفييتى» (دار الشروق، القاهرة، ١٩٩٠)، عاد محمد حسنين هيكل إلى تفجير مسألة «التكوين» هذه بحديثه عن «تكوين الشعب الروسى»، دون أن يمهد لهذا الحديث بأى تبرير علمى لفكرة «التكوين» هذه، وكأنها من المسلمات التى لاتقبل نقاشاً!

وأياً كان الأمر، يرى الكاتب أن هذا «التكوين» متأثر بتراث «العبودية» (يقصد نظام حلسية الأرض الذى أباح للملاك التعامل مع الفلاحين كما لو كانوا مواشى يمكن بيعها مع الأرض أو منحها كهدية، وهو «حق» ألغى فى فبراير ١٨٦١ بسبب تزايد الاضطرابات الفلاحية وتجاوباً مع جانب من متطلبات التطور الرأسمالى).

ويرى الكاتب أن تأثر «تكوين الشعب الروسى» بهذا التراث كان حاسماً، بحيث أن

الروسى العادى (الذى ناضل من أجل إلغاء حلسية الأرض، كما تشهد على ذلك حرب الفلاحين الكبرى بين عامى ١٧٧٣ و ١٧٧٥ واضطرابات أوائل الستينيات الفلاحية فى القرن التاسع عشر) «يريد من حاكمه أن يكون نصف متوحش ونصف إله، وهذا بين ضمانات استمرار شرعيته» (ص ٩٥)!

وهذا الادعاء، كما يمكن أن نرى، ليس جديداً تماماً، فقد سبق للأديب الروسى جوجول (١٨٠٩ - ١٨٥٢) أن ردد زعماً قريباً منه فى كتابه «فقرات مختارة من مراسلات مع أصدقاء» (١٨٤٧). لكن هذا الزعم قوبل فى حينه بالتفنيد من جانب الناقد الروسى بيلينسكى (١٨١١ - ١٨٤٨) فى رسالته الشهيرة إلى جوجول والمؤرخة فى ٣ يوليو ١٨٤٧. وقد ذكر بيلينسكى فى هذه الرسالة - البيان أن هذا الزعم «لم يلق تعاطفاً لدى أحد وأدى إلى الانتقاص من شأنك حتى فى أعين الأشخاص الذين تعتبر نظرتهم قريبة للغاية من نظرتك؛ فى مسائل أخرى». ويجب أن نتذكر أن كثيرين قد وقفوا إلى جانب بيلينسكى فى دفاعه عن الشعب الروسى ضد مزاعم جوجول وأن التهمه التى قادت دستويفسكى (١٨٢١ - ١٨٨١) إلى الأشغال الشاقة كانت هى تلاوته رسالة بيلينسكى إلى جوجول فى أحد الاجتماعات السرية[1].

وفى سياق ادعاء محمد حسنين هيكل، فإن تاريخ روسيا السياسى الحديث فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين يبدو بوصفه تاريخ «صراع بين المثقفين والقياصرة» (ص ص ٦٨ - ٦٩)!

وإذا كان صحيحاً أن الصراع بين المثقفين والقياصرة هو ملمح لاينكر من ملامح التاريخ السياسى الروسى الحديث، خاصة خلال الفترة الممتدة من أواخر عشرينيات إلى أواخر خمسينيات القرن التاسع عشر، والتى تميزت بركود الحركة الفلاحية، فإن الصحيح أيضاً هو أن «الروسى العادى» (خاصة العامل) كان القوة الرئيسية فى الصراع ضد القيصرية خلال ذات الفترة التى يزعم الكاتب أنها لم تعرف غير الصراع بين المثقفين والقياصرة!

ولو كان صحيحاً أن «الروسى العادى» - كما يزعم الكاتب - «يريد من حاكمه أن يكون نصف متوحش ونصف اله، وهذا بين ضمانات استمرار شرعيته»، فكيف يفسر لنا الكاتب ثورة «الروسى العادى» هذا نفسه على انصاف المتوحشين وانصاف الآلهة فى الثورة الروسية الأولى بين عامى ١٩٠٥ و١٩٠٧ والثورة الروسية الثانية فى فبراير ١٩١٧ والثورة الروسية الثالثة فى أكتوبر ١٩١٧ وخلال الحرب الأهلية الروسية بين عامى ١٩١٨ و

١٩٢١ (ثلاث ثورات وحرب أهلية مجموع سنواتها الدرامية ثمانى سنوات خلال ست عشرة سنة فقط، وهو رصيد كفاح فى سبيل الحرية يتجاوز رصيد كفاح أى شعب أوروبى آخر فى التاريخ الحديث علاوة على مغزاه التاريخى - البشرى العام) ؟!

وإذا كان من المؤسف أن يردد كاتب - على مشارف القرن الحادى والعشرين - خرافات يفندها التاريخ الروسى منذ القرن الثامن عشر، إن لم يكن منذ ما قبل ذلك أيضاً[٢]، إلا أن هذا هو حال الكتاب الذين لم يتمكنوا حتى الآن من تجاوز الأساطير التى كانت رائجة خلال فترات ذروة الحرب الباردة!

الحواشى

١- لابد من التشديد على أن «هفوة» جوجول تتعارض مع جوهر اعماله الإبداعية الخالدة وهو ما أشار إليه كبار النقاد الروس. وخلال الذكرى الخمسين لرحيل الأديب الكبير، دعا ليون تروتسكى (١٨٧٩ - ١٩٤٠) إلى اغتفار الهفوة «الصحفية» لقاء ما قدمه جوجول من خدمة عظمى للأدب. وواضح أن المسألة مع محمد حسنين هيكل ليست مسألة هفوة «صحفية» بل مسألة موقف مقصود يتخلل كتاباته عن الاتحاد السوفييتى.

٢- بين عامى ١٦٠٦ و ١٦٠٧، شهدت روسيا أول حروبها الفلاحية، وبالمناسبة، فقد كان ايفان بولوتنيكوف، قائد الفلاحين فى هذه الحرب، «عبداً» حقيقياً سابقاً، وكان فى وقت من الأوقات سجيناً فى تركيا. ولم ينجح القيصر فاسيلى شويسكى فى سجن المتمردين، المتمركزين فى مدينة تولا باستخدام قوة السلاح فلجأ إلى بناء سد على نهر أوبا وأغرق جزءاً ملحوظاً من المدينة لاجبار المتمردين على الاستسلام وهو ماحدث فى أكتوبر ١٦٠٧. وقد استكمل القيصر وحشيته بعد استسلام المتمردين بانزال القمع الوحشى بهم وبتنكره لتعهده بعدم اعدام بولوتنيكوف، حيث أمر بسمل عينيه واغراقه حياً فى حفرة من الجليد!.

كاڤافى وأحمد راسم

خلال صيف عام ١٩٧١، زارت الناقدة الأمريكية «جين لاجوديس بنتشن» الاسكندرية فى سياق بحثها عن اسكندرية «كافافى» و «فورستر» و «داريل». وفى عام ١٩٧٧ نشرت فى برنستون، نيوجيرسى، كتابها المعروف: «الاسكندرية ماتزال» والذى ذكرت فيه، أن «كافافى» «لم يكن مهتماً بمشاكل مصر المعاصرة، اللهم إلاّ فى مناسبة واحدة – فى قصيدة تبكى فلاحاً شاباً أعدم دون وجه حق، انتقاماً لموت رجل إنجليزى». والقصيدة التى تشير إليها «بنتشن» هى قصيدة «٢٧ يونيو ١٩٠٦، الثانية ظهراً» التى كتبها «كافافى» فى عام ١٩٠٨ والتى نشر «جورج سافيديس» أصلها اليونانى، لأول مرة، فى أثينا فى عام ١٩٦٨.

ويرد زعم «بنتشن» فى سياق أكثر عمومية يؤكد على أن «كافافى» لم يكن مهتماً بأى شئ مصرى معاصر له، وهو تأكيد يكذبه ستراتيس تسيركاس فى كتابه: «كافافى السياسى» الذى يتضمن فصلاً بأكمله تحت عنوان: «كافافى ومصر المعاصرة»، استندت إليه الناقدة اليونانية «مارينا ريسڤا» فى تأكيدها على «تمرد كافافى على الظلم الذى اقترفته بريطانيا العظمى فى حق الأمة المصرية».

لكن ما يعنينا هنا ليس هو إبراز هذا الواقع الذى لاينكر، بل إبراز واقع آخر تعرض للتجاهل زمناً طويلاً: اطلاع «كافافى» على الإبداع الشعرى المصرى، المكتوب بالفرنسية، وتحمسه له، ونعنى هنا بالدرجة الأولى إبداع «أحمد راسم» (١٨٩٥ – ١٩٥٨)، وهو الشاعر الذى قال عنه الناقد «جاستون بيرثى» إنه «أكثر شعراء الفرنسية المصريين مصرية».

فمنذ عام ١٩٢٦، شقت قصائد «أحمد راسم» طريقها من مدريد، ثم من براغ، إلى مجلة «لاسومان اجيبسيان» التى كان يرأس تحريرها الصحفى المعروف «ستاڤروس ستاڤرينوس» صديق «كافافى». وفى سبتمبر ١٩٢٧، نشرت دار «رسائل الشرق» الباريسية ديوان «أحمد راسم» الأول المكتوب بالفرنسية بعنوان: «كتاب نيسان». وفى ٣١ مايو ١٩٢٨، أصدر «ستافرينوس» عدداً خاصاً من المجلة مكرّساً لإبداع «أحمد راسم» الشعرى، تضمن مجموعة من القصائد التى كتبها الشاعر فى براغ، قلب بوهيمياً الذى أنصت إليه «أبوللينير».

كان «كافافى» يتابع بدأب قصائد الشاعر المصرى الذى ولد – مثله – فى الإسكندرية. ولم يكن الشاعر اليونانى الشيخ ليخفى حماسه لإبداع الشاعر المصرى الشاب، فقد أعرب عن هذا الحماس أمام كثيرين من المبدعين السكندريين الأجانب، الذين كانوا أصدقاء

مشتركين له ولـ «أحمد راسم» في الوقت نفسه.

وعندما قرر «ستافرينوس» إصدار عدد خاص من مجلته عن إبداع «أحمد راسم»، وهو قرار سابق لقراره باصدار عدد خاص عن إبداع «كافافى»، أرسل من القاهرة رسالة إلى الأخير فى الإسكندرية يخبره فيها بما قرره. ورداً على هذه الرسالة، كتب «كافافى» الرسالة التالية، والتى نشرت فى صدر العدد الخاص من المجلة عن «أحمد راسم»:

«الإسكندرية، ٩ مايو ١٩٢٨ ١٠ شارع ليبسيوس

عزيزى ستافرينوس،

تلقيت رسالتك المؤرخة فى ٦ مايو والتى تخبرنى عن طريقها بأن مجلة «لاسومان إجيبسيان» تنوى تكريس عدد خاص لأحمد راسم، إنك محق فى القول بأننى أكن التقدير له. فلقد أعربت، شفاهة، مراراً، عن مشاعر التقدير التى أكنها لأحمد راسم، وسوف أكون سعيداً إذا ما تسنى تحقيق أوسع ذيوع لها من خلال مجلة «لاسومان اجيبسيان».

إننى أحب فى أحمد راسم التعبير الحىّ، والروح، والموقف. وعندما أرى فى مجلة «لاسومان اجيبسيان» مقالة أو قصيدة بتوقيع أحمد راسم، فإننى أسارع إلى قراءتها، مقتنعاً بأننى سوف أجد شيئاً جميلاً ومثيراً للاهتمام. وحتى هذا اليوم لم يخب ظنى.

إننى أتحدث عن ذلك الجانب من عمله المكتوب بالفرنسية، إلاّ أنه يبدو لى من المؤكد أن خصائص الكتابة العديدة المجتمعة فى أحمد راسم، لابد وأنها قد منحت الأدب العربى أيضاً صفحات مماثلة، لتلك المكتوبة بالفرنسية، والتى تدخل السرور على قلبى، تدخل سروراً جماً على قلبى.

صديقك

ك. ب. كافافى»

ومن جهة أخرى، على الرغم من أننى لم أعثر – حتى الآن – على شهادة لأحمد راسم عن إبداع «كافافى» الشعرى، فإن الأمر الذى لاجدال فيه هو أن الشاعر المصرى قد قرأ على صفحات مجلة «لاسومان اجيبسيان» الترجمات المهمة لأجمل قصائد كافافى.

المحتـــويات

صفحــة

صفحـــة

صفحة

صفحـــة

تصميم وإخراج
مطبعة الجمهورية
١ شارع محمد طلعت سلام خلف شيكوريل
محطة الرمل ٨١٩٦٤٨



دار النيـــل

تليفون : ٠٠٤٤٠٠٦

٦ شارع الغرفة التجارية - الإسكندرية